كنت جاسوسا

سومرست موم

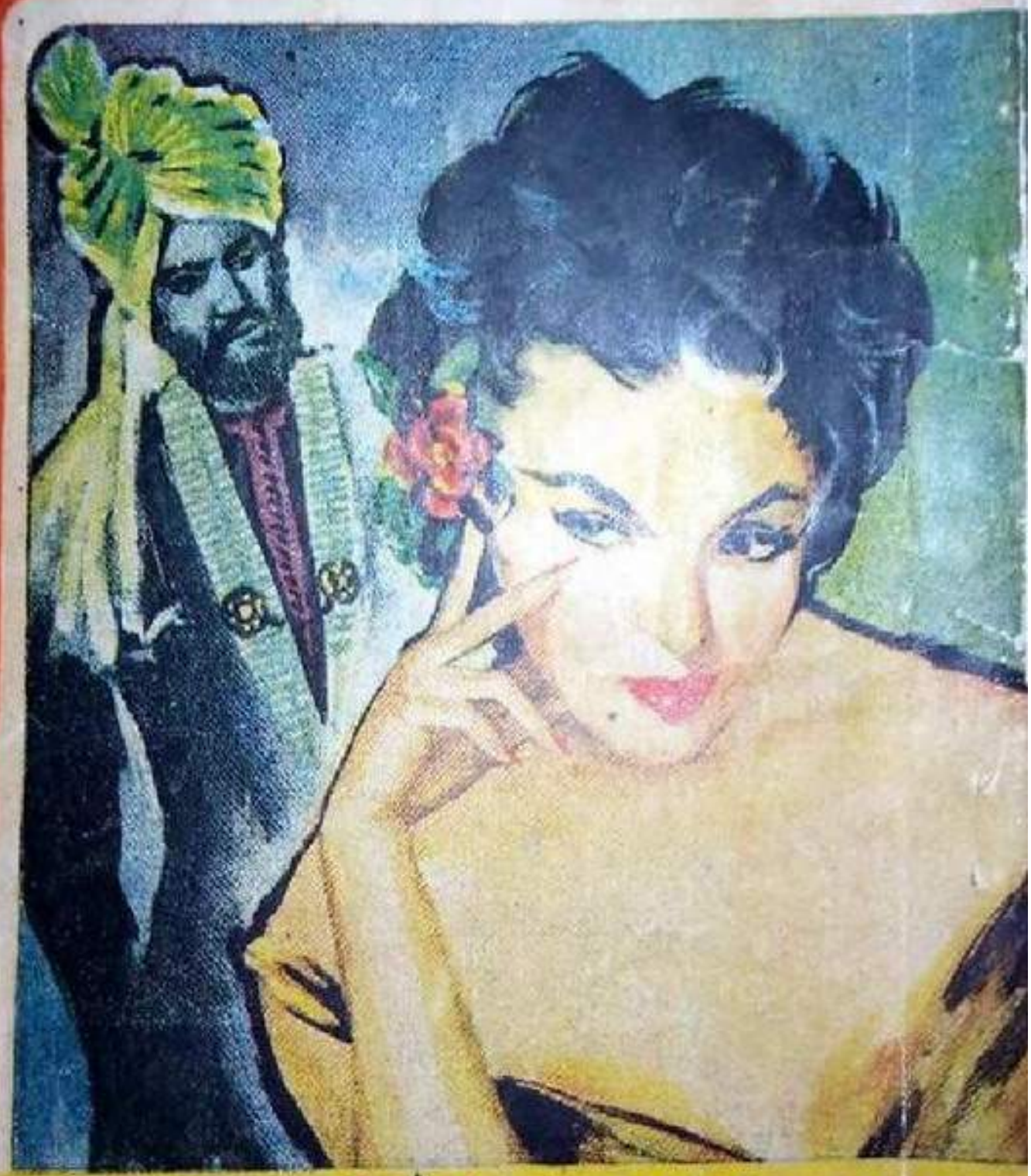

روايات الهلال

٨ قروش

روائع القصص العالمي

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

کنج حاسوسا

نوشتهٔ

سومرست موم

دار الهلال

مؤلف الرواية

وليم سومرست موم ، الكاتب الروائى المعاصر ، اشتهر بكثرة انتاجه ، وانتشار مؤلفاته التى لا يقل عددها عن ستين مؤلفا مابين روايات مسرحية ، وقصص ، وكتب سياسية . ويمتاز بأنه كاتب واقعى ، يستمد قصصه من الحياة ، ومن ملاحظاته للناس فى أسفاره العديدة . وهو يكره الحواشى والاوصاف ، ويعمد الى الوقائع مباشرة ، يمزج الحقيقة بالخيال ، مزج كاتب خبير بفن القصص ، عليم بطبائع النفوس ، ميال الى السخرية .

ولد سنة ١٨٧٤ وتعلم فى « مدرسة الملك » بكانتربرى ورحل فى نشأته الى باريس فتعلم اللغة الفرنسية واتقنها ، ثم عاد يدرس فى انجلترا ، وبعدئذ انتقل الى جامعة هيدلبرج بالمانيا ، ثم سافر الى ايطاليا وتعلم اللغة الايطالية بمدينة فلورنس . وهكذا جمع فى سنى شبابه محصولا وافرا من المعارف والمعلومات واتقن عدة لغات . وقد ألف اول رواية بعنوان « ليزا أوف لمبث » وهو فى الثالثة والعشرين من عمره ، واستمد موضوعها من ملاحظاته وهو طالب طب يتدرب فى احد المستشفيات بلندن ، حيث عرف الفقر ووقف على ظروف الفقراء .

ومع انه درس الطب ، لم تجذبه مهنة الطب ، كما لم تعجبه مهنة المحاماة من قبل ، ومال الى الادب وحده ، خصوصا بعد أن نجحت روايته الاولى نجاحا رائعا ، وعدت من بدائع القصص الواقعى . وكان ابوه وجده محاميين ، وقد وصل اخوه اللورد موم الى منصب وزير مالية بريطانيا ، ولكن وليم سومرست آثر الادب على كل منصب ، وكل مهنة اخرى .

وبعد نجاح روايته الاولى شرع يؤلف للمسرح ، غير ان مديرى

المسارح رفضوا رواياته الهزلية التى قدمها ، حتى كاد ييأس من النجاح فى هذا المجال ، واذا بهزلية تدعى « اللادى فردريك » يقبلها أحد المسارح فتنجح نجاحا منقطع النظير . وتدور حوادثها حول شاب وقع فى غرام حسناء أكبر منه سنا . ثم تلتها هزليات أخرى ، فيها نقد للمجتمع وقد نجحت كلها كذلك .

وعندما نشبت الحرب الاولى عام ١٩١٤ دخل الخدمة الطبية العسكرية فى فرنسا ثم نقل الى قلم المخابرات البريطانية فى انجلترا وقد تأثرت صحته من العمل المتواصل فسافر الى جزر الجنوب مارا بأمريكا ، ووجد فى تلك الجزر الهدوء الذى ينشده ، وعاد بملاحظات وذكريات أعانته فى تأليف روايته « القمر وستة بنسات » ولكنه أوفد قبل أن يتم هذه الرواية فى بعثة دبلوماسية الى روسيا . وهناك عاوده المرض ، ورجع الى انجلترا مريضا بذات الرئة ، فدخل مصحا امضى فيه عدة اشهر حتى عوفى من دائه . وسرعان ماحفزه حب السفر الى أن يبحر الى الصين ، وقد عاد منها برواية جديدة وهكذا ظل على سفر دائم ، يستمد منه موضوعات لقصص ينشرها بالمجلات الانجليزية والامريكية أو يؤلف منها كتبا وروايات

وقبل نشوب الحرب العظمى الاخيرة كان قد استقر فى « فيللا » سماها « بورسك » عند راس فرات بالقرب من مدينة نيس . ولكن الالمان احتلوا فرنسا فى عام ١٩٤٠ فاضطر الى الفرار فى باخرة فحم حتى وصل الى انجلترا ، ثم لجأ الى أمريكا حيث استقر فى مزرعة بولاية كارولينا الجنوبية . وهناك عاد الى تأليف الكتب والروايات والقصص . وقد اقبل الامريكيون على رواياته يخرجون منها أفلاما ، فلقيت هذه الافلام نجاحا عظيما حيثما عرضت فى أمريكا وغيرها من البلدان .

شخصيات الرواية

• **اشندن** Ashenden : اسم الجاسوس الانجليزى الروائى الطبيب . وهو اسم مستعار للمؤلف نفسه .

• **سومرفيل** Somerville : اسم مستعار له فى احدى مغامراته بمدينة لوسرن فى سويسرا .

• **كايبور** Caypor صحفى انجليزى خان بلاده وعمل جاسوسا الالمان فى سويسرا ، وزوجته المانية ..

• **جوستاف** Gustav : اسم سرى لموزع تجارى سويسرى يعمل فى خدمة المخابرات الانجليزية ، واسمه الحقيقى جرانا Grabow

• **شندرالال** Chandra Lal : من احرار الهند العاملين على القضاء على الاستعمار الانجليزى فى الهند .

• **جولپا لازارى** Guilia Lazarri : عشيقة شاندرالال الايطالية التى تحترف الرقص الاسبانى الشعبى تحت اسم مالاجوينا Malaguena

• **الجنرال كارمونا** Carmona : جنرال مكسيكى مطرود من بلاده عقب انقلاب فى الحكم ، ويعمل فى خدمة المخابرات الانجليزية ولا يتورع عن ارتكاب اية جريمة .

• **اندريادى** Andriadi : جاسوس لحساب المانيا ، يونانى الجنسية قادم من بلاد اليونان الى ايطاليا فى مهمة سرية .

• **الكولونيل** Coloneir : مدير المخابرات العسكرية الانجليزية، والرئيس المباشر لاشندن والعقل الموجه لمؤامراته ومغامراته .

الفصل الأول

الاسم السرى

فى أوائل سبتمبر عاد اشندن الكاتب المحترف الى الجزيرة البريطانية بعد مصاعب جمة بسبب نشوب الحرب . وبعد ذلك بايام جمعته الظروف فى احدى السهرات بكولونيل كهل لم يعلق اسمه بذهنه . ودار بينهما حديث مما يسمر به الناس عادة فى مثل تلك الحفلة . وقبيل انصرافه قال له الضابط :

ـ الديك مانع من زيارتى فى مكتبى لنتحدث بعض الوقت ؟

ـ ليس عندى مانع بالتأكيد . متى تحب ان ازورك ؟

ـ غدا فى الحادية عشرة . هل يوافقك هذا الموعد ؟

ولما أبدى له موافقته كتب له عنوانه بالقلم الرصاص . ولما هم اشندن فى اليوم التالى بالذهاب فى الموعد المحدد وجد نفسه يدخل شارعا عتيقا كانت مبانيه بالطوب الاحمر تدل على ايغالها فى القدم ، كما تدل على ان هذا الشارع كان من الشوارع الهامة فى الماضي . وكان البيت المقصود يحمل لافتة للبيع ونوافذه مغلقة كلها مما يوحى بانه غير مأهول .

ورن اشندن جرس الباب ففتح له على الفور ضابط لم يوجه له اى سؤال بل ادخله على الفور الى حجرة مستطيلة فى مؤخرة البيت كانت يوما ما حجرة مائدة . وزخارفها لاتتفق اطلاقا مع اثاث المكتب القديم الموضوع فيها . ونهض الكولونيل لاستقبال اشندن وشد على يده . وعرف اشندن فيما بعد ان هذا الكولونيل يطلق عليه فى المخابرات البريطانية اسم سرى مكون من حرف واحد لا اكثر هو : « ر » . وهو رجل طوله اكثر من المتوسط بقليل ، له وجه اصفر به خطوط غائرة ، وشعره خفيف اشهب اللون ، وشاربه اشبه بفرشاة الاسنان . وكان الذى لفت ذهن اشندن لاول وهلة التقارب

الشديد بين مقلتيه الزرقاوين . وكـــانت عينـــاه قاسيتين يقظتين تضفيان عليه سمة الدهاء بحيث تشعر من النظرة الاولى أنك ازاء رجل لا يحب ولا يوثق به ، مع أن لهجته ودية وسلوكه لطيف .

والقى الكولونيل على اشندن اسئلة كثيرة ، ثم قال له من غـــير تمهيد أن فيه صفات كثيرة ترشحه لخدمة المخابرات السرية . فهو يتقن عدة لغات أوروبية . وحرفة التأليف تصلح غطاء جيدا لتنقلاته واقامته بعض الوقت فى الدول المحايدة .

ولم يستغرق الاثنان وقتا طويلا فى الوصول الى اتفاق . وعنـــدما نهض اشندن للانصراف كان قد سجل بعنـــاية التعليمات الدقيقـــة الصادرة اليه . وأولها أن يسافر الى جنيف فى اليوم التالى .

وكانت آخر كلمات الكولونيل وهو يصافحه مودعا :

ـ من واجبى أن ابصرك بما ينتظرك فى هذه الخدمة . ان احسنت فلن تتلقى الشكر . وان انزلقت فى مكروه فلن تجد عونا منا . فهل هذا مما تطيب به نفسك ؟

ـ تماما .

ـ اذن اتمنى لك التوفيق .

الفصل الثانى

زيارة

كان اشندن فى طريقه عائدا الى جنيف والليلة عاصفة والرياح تهب باردة من الجبال ، ولكن الباخرة الصغيرة ظلت تشق طريقها باصرار بين امواج البحيرة المثلوجة ، والمطر ينهمر وابلا على سطحها فى عنف كأنه امرأة تشاغبه لا تريد أن تترك بابا للازعاج الا طرقته .

وكان اشندن قد رحل الى فرنسا كى يكتب تقريرا ويرسله من هناك . وقبل ذلك بيومين حضر احد عملائه الهنود الى مسكنه فى نحو الساعة الخامسة بعد الظهر على غير موعد سابق ، وكانت التعليمات الصادرة الى العملاء الا يقابلوه فى الفندق الا للضرورة القصوى . وقال الهندى ان بنفاليا فى خدمة الالمان وصل أخيرا من برلين ومعه حقيبة سوداء بها تقارير ووثائق تهم الحكومة البريطانية . وفى ذلك الوقت كانت سياسة الاعداء العمل على اثارة المتاعب فى الهند كى تضطر الحكومة الانجليزية الى ابقاء جيوشها هناك مشغولة بقمع الاضطراب ، هذا ان لم تضطر لارسال مزيد من جيوشها الموجودة فى فرنسا . وقد اتضح انه يمكن حمل السلطات فى برن على اعتقال ذلك البنغالى بتهمة ما ، ولكن الحقيبة السوداء لم يعثر لها على أثر .

وكان الهندى عميل اشندن رجلا شديد البراعة ، واسع الحيلة كثير الاختلاط بمواطنيه المعادين لبريطانيا فعرف ان البنغالى كان قد احتاط للامر فترك الحقيبة فى مخزن الامانات بمحطة زيورخ . فلما قبض عليه والقى فى السجن انتظارا للمحاكمة لم يعد فى وسعه ان يسلم البطاقة لاحد اعوانه كى يسحب الحقيبة من المخزن . وكان من المهم جدا لدى المخابرات الالمانية أن تؤمن محتويات الحقيبة على وجه السرعة . ولما كان من المستحيل عليهم الحصول على الحقيبة

بالوسائل الرسمية العادية من غير البطاقة ، فقد استقر رايهم على مهاجمة المحطة فى هذه الليلة بالذات لسرقة الحقيبة . وهى خطة جريئة متهورة ، ولكن اشندن وجد فيها ما يثير اهتمامه ، بعد أن تسرب الملل الى نفسه من رتابة العمل . وكان يعرف ان رئيس المخابرات الالمانية فى برن رجل مندفع لا يعرف التورع .

وكان الموعد المحدد لذلك الاقتحام هو الساعة الثانية من صباح الغد . ولم يكن فى استطاعة اشندن ان يثق بالبرق أو التليفون فى اتصال بالضابط البريطانى فى برن . والعميل الهندى لم يكن فى وسعه أن يذهب لمقابلة ذلك الضابط فى برن ، لانه حمل راسه على كفيه حينما حضر الى جنيف لمقابلة اشندن . ولو شوهد خارجا من حجرته بالفندق لاعتبره مواطنوه خائنا . وصار من المرجح أن توجد جثته طافية بعد أيام قلائل على وجه البحيرة وقد غار الخنجر فى ظهره حتى المقبض . فلم يبق امام اشندن اذن الا ان يسافر بنفسه الى برن .

وكان هناك قطار مسافر الى برن بعد دقائق قليلة فاسرع اشندن وبعد اربع ساعات كان يطرق باب قيادة المخابرات هناك . وكان اسمه غير معروف لاحد هناك سوى شخص واحد طلب اشندن مقابلته ولم يكن قد التقى به من قبل ، فجاءه رجل طويل القامة يبدو عليه التعب فقاده الى مكتب منعزل . وافضى اليه اشندن بمهمته ، وعندئذ نظر الرجل الطويل الى ساعته ، وقال :

ـ ان الوقت لا يتسع كى نعمل شيئا بانفسنا . لاننا لن نصل الى زيورخ فى الوقت المناسب . فمن الخير ان نوعز الى السلطات السويسرية بالعمل حتى اذا اقتحم اصحابنا المحطة وجدوها فى حراسة شديدة . ويستحسن ان تعود انت الى جنيف .

وصافح اشندن وردعه الى الباب . وادرك اشندن انه لن يعرف بقية القصة لانه مجرد حلقة صغيرة فى سلسلة ضخمة من العملاء السريين .

وكان يشعر بالبرد شعورا شديدا رغم معطفه المبطن بالفراء ، وقد

وطن النفس على اخذ حمام ساخن بمجرد وصوله الى الفندق ، ثم يتناول عشاء دسما بجوار المدفأة فى حجرة النوم وهو فى بيجامته ، ثم يسرى الدفء الى اوصاله المقرورة ، ثم يخلو بعدئذ الى غليونه وبين يديه كتاب . وكانت هذه الامنية كافية لتخفيف فظاعة الجو على سطح الباخرة الصغيرة . وكان جواز سفره لا يحمل اية اشارة الى قدومه من فرنسا . وهذا الجواز خال من الاختام الفرنسية مما قد يعرضه لمتاعب ، ولاسيما ان البوليس السرى السويسرى كان شديد اليقظة لوضع حد للمؤامرات والدسائس التى يقوم بها الفريقان المتحاربان فوق الاراضى السويسرية المحايدة .

وكان هناك كالعادة ضابطان من ضباط الشرطة على الرصيف لمراقبة النازلين من الباخرة . وتنفس اشندن الصعداء عندما تخطاهما من غير ان يحدث شيء . وسرعان ماتجه تحت جنح الظلام نحو فندقه . وكانت المتاجر قد اغلقت ابوابها وخلت الشوارع الا من عدد يسير جدا من المارة . وكان فندقه فى مواجهة البحيرة ، فما أن فتح له البواب حتى أسرع يخترق البهو المتلألىء بالانوار ليركب المصعد . واذا بعامل الاستقبال يخبره ان فى حجرته سيدين ينتظران عودته . ولم يكن لاشندن أصدقاء فى جنيف فقال بدهشة :

ـ من تراهما يكونان ؟

وابتسم الرجل الذى كانت هيبات اشندن السخية تفمره ، وقال :

ـ لا اخفى عليك انهما من رجال الشرطة .

ـ ماذا يريدان ؟

ـ لم يصرحا لى بشيء عن غرضهما . لقد سالا عنك فقط فقلت انك خرجت لنزهة . فاصرا على انتظار عودتك الى حجرتك .

ـ ومنذ متى ؟

ـ منذ ساعة

وغاص قلب اشندن ولكنه لم يدع ملامحه تنبىء عن قلقه . وغادر المصعد متعللا للعامل بانه يريد الصعود على قدميه ليقاوم البرد .

والحق انه صعد الطبقات الثلاث ببطء ليمنح نفسه مهلة للتفكير .

وكان على شبه يقين من سبب حضور ضابطى الشرطة . ولعن ظروف التعب بعد الرحلة المرهقة والبرد الشديد . فليست لديه الهمة كى يجابه موقفا عصيبا . وليس لديه الاحتمال لقضاء مثل هذه الليلة الفظيعة فى زنزانة الحبس .

وخطر بباله أن ينزل ثانية ويغادر الفندق ويترك حقائبه ويستقل اول قطار الى خارج الحدود السويسرية . ولكن قدميه لم تستجيبا لهذا الخاطر واستأنفتا الصعود . مع انه كان يعلم جيدا أن ثبوت تهمة النشاط المنافى للحياد معناه السجن سنتين . ولكن هذه ضريبة العمل فى المخابرات كما أن التعرض للقتل ضريبة الجالسين على العرش .

ولما وقف أخيرا أمام باب حجرته المقفل بدات عزيمته تتجمع وذهنه يتوقد . وكانت الابتسامة الطبيعية على شفتيه عندما فتح الباب وواجه زائريه بتحية تفيض بشاشة ومودة . .

وكانت جميع الانوار فى الحجرة مضاءة . والنار متوهجة فى المدفاة ودخان السجائر يملأ الجو . وكان اشندن محبا للاناقة والترتيب . فاستطاع أن يفطن بنظرة واحدة الى أن جميع محتويات الحجرة فتشت تفتيشا دقيقا . ولم يزعجه ذلك لانه لم يكن يحتفظ فى حجرته بأية وثيقة يمكن أن توقعه فى مأزق . وأما شفرته فكان يحفظها عن ظهر قلب . ولكن عملية التفتيش نفسها اكدت ارتياب السلطات السويسرية فى امره .

ـ أية خدمة أستطيع تقديمها لكما أيها السيدان ؟ ألستما تجدان الجو حارا هنا فيحسن أن تخلعا معطفيكما وقبعتيكما ؟

ـ لن نبقى الا برهة وجيزة .

وخلع اشندن وشاحه ومعطفه الثقيل ثم قدم اليهما سيجارا فاخرا ، أخذاه من غير كلمة شكر . ولكن فخامة السيجار اوحت اليهما بشىء من الاحتشام والاحترام فخلعا قبعتيهما ، ثم قال احدهما :

ـ نحن من الشرطة . ونريد الاطلاع على جواز سفرك .

وابرز اشندن جواز سفر جديد ليس فيه اية معلومات عن تحركاته سوى انه جاء من لندن منذ ثلاثة اشهر ولم يبرح سويسرا حتى ذلك الوقت . وتناول احدهما الجواز ونظر فيه بعناية ثم اعطاه لزميله وهو يقول :

ـ اظنه على مايرام

وكان اشندن فى تلك الاثناء واقفا امام النار يتدفأ وبين شفتيه سيجارة فلم يعلق بشيء وان كان يرقب الرجلين بحذر خفى يموهه بطلاقة محياه . ثم رد اليه احدهما الجواز ، وهو يقول :

ـ لقد كلفنا مدير الشرطة بالاستعلام منك عن بضعة امور . اذ يبدو أن الكثيرين من النزلاء قدموا شكاوى من الضجة التى يحدثها المنصرفون من الكازينو فى ساعة متأخرة من الليل فاحببنا أن نعرف هل انت شخصيا ممن ازعجتهم الضجة ؟ فلو كانت الضجة شديدة لسمعتها حتما لان طريقهم من تحت نافذتك .

وذهل اشندن لاهتمام مدير البوليس براحته فى منامه الى هذه الدرجة . ولكنه رجح ان الرجل تعلل بهذا العذر لانه لم يجد ضده دليلا يبرر مواجهته بالاشتباه . فمن المقطوع به ان هناك من وشى بأشندن ، ولكنه قال بصورة طبيعية للغاية :

ـ الحقيقة اننى أنام نوما عميقا . ولم يزعجنى فى اقامتى شيء . ولو فرضنا اننى استيقظت مرة من نومى على الضجة فلن يخطر ببالى أن اتقدم بشكوى . فمن حق الناس أن يمرحوا فى هذا الوقت المصيب الذى تجتازه البشرية . هذا شعورى ايها السيدان .

ـ لقد لاحظت فى جواز سفرك ان مهنتك التأليف ياسيدى . وهى مهنة جليلة تجلب لصاحبها المجد ، فماذا تفعل هنا فى جنيف ؟

فشعر اشندن أن وراء السؤال ماوراءه ، وقال ببراءة تامة :

ـ اؤلف مسرحية .

واشار بيده الى الاوراق المتناثرة على المنضدة ، وكان واثقا انهما اطلعا عليها قبل حضوره . فقال احدهما :

ـ ولماذا تؤلف مسرحيتك فى جنيف بالذات لا فى وطنك ؟

فازدادت ابتسامة اشندن اشراقا . وكان هذا السؤال من الاسئلة التى اعد الكتابة عنها منذ قدومه الى سويسرا ، فقال :

ـ هل نسيت الحرب ؟ ان وطنى فى حالة قلق بسبب الحرب فمن المستحيل ان اجد هناك الهدوء اللازم لكتابة المسرحية .

ـ وهل هى ملهاة أم ماساة ؟

ـ ملهاة من النوع الخفيف . والفنان يحتاج الى الهدوء والسلام كى ينتج . وكيف يتوفر ذلك فى بلد محارب ؟ ومن حسن الحظ سويسرا انها محايدة . ولذا خيل الى اننى سأجد فى جنيف الهدوء الذى انشده .

وظهر الاقتناع على الشرطيين فنهضا وصافحهما اشندن . ثم اغلق خلفهما الباب وزفر زفرة ارتياح عميقة دخل بعدها الحمام ، وهو يتذكر مشاحنة حدثت منذ بضعة أيام بينه وبين ساق سويسرى من اصل المانى طلب زيادة اتعابه فرفض اشندن . وانصرف الساقى برنارد حانقا . ورجح اشندن ان برنارد هو الذى وشى به الى السلطات السويسرية . وحمد ربه لان الازمة مرت هذه المرة بسلام .

الفصل الثالث

الآنسة كنج

استلقى اشندن مسترخيا فى حوض الاستحمام ، مسلما بدنه للماء الساخن ، وقد سره انه سيتمكن فى الغالب من اتمام مسرحيته فى هدوء وسلام . فالشرطةقد صرفوا انظارهم عن تعقبه فى الوقت الحاضر وان كان من المحتمل انهم بدءوا يرقبون حركاته منذ الان بشىء من العناية . ولكن من غير المتوقع ان يتخذوا ضده خطوة اخرى قبل ان يكون قد اتم على الاقل مسودة الفصل الثالث . فمن الواجب اذن ان يلزم جانب الحيطة لان زميله فى مدينة لوزان حكم عليه منذاسبوعين بالحبس . ولكن ذلك ينبغى الا يثقل على اعصابه ، فسلفه فى مدينة جنيف اصيب بانهيار عصبى على اثر الضغط الناتج من مراقبة الشرطة المستمرة له ، ولذلك اضطر المسئولون ان يسحبوه وارسلوا اشندن ليحل محله .

واهم شىء فى عمل اشندن أن يذهب مرتين كل اسبوع الى السوق ليتلقى التعليمات التى تحضرها له فلاحة عجوز من اقليم السافوا الفرنسى تأتى الى جنيف لتبيع الزبد والبيض مع رفيقاتها . والتفتيش على الحدود ليس دقيقا لان أولئك الفلاحات يصلن الى نقطة التفتيش قبيل الفجر ، والموظفون نيام ، فيتخلصون من ثرثرتهن وضجتهن باسرع وقت . ولا يخطر بالبال أن هذه العجوز السمينة المتوردة الوجه التى يفتر فمها عن ابتسامة ساذجة تخبىء بين ثدييها الضخمين قصاصة صغيرة من الورق تكفى لالقاء القبض عليها وعلى كاتب انجليزى يزحف الى أواسط العمر . وكانت هذه المراة تقدم على هذه المجازفة ثمنا لابعاد ابنها عن خنادق الميدان .

وكان اشندن يذهب الى السوق بعد التاسعة عندما تكون ربات البيوت قد فرغن من شراء حوائجهن ، ويقف أمام السلة ليشترى

نصف رطل من الزبد ، ويعطيها ورقة مالية فترد اليه بقية نقوده ، ومعها القصاصة الصغيرة ، فيدس قبضته فى جيبه . ويعود مسرعا الى الفندق فيطالعها خلسة ويحفظها عن ظهر قلب ثم يحرقها ...

وتنهد اشندن لان حرارة الماء بدات تقل ، ولم يكن فى استطاعته ان يصل الى الصنبور المرتفع بيده ولا باصابع قدمه ، وهو راقد . ولو نهض ليضيف ماء ساخنا الى الحوض ، سيكون قد تخلى عن الاسترخاء ، وعندئذ يستوى عنده العودة الى الماء الساخن او الخروج من الحمام .

وظل اشندن مترددا برهة ، وهو يسلى نفسه بتذكر الفكاهات التى يريد ايرادها فى مسرحيته ، واذا به يسمع طرقا خفيفا على باب حجرته فهتف :

ـ من الطارق ؟

ـ رسالة .

ـ ادخل وانتظرنى دقيقة .

وخرج اشندن من حوض الاستحمام واحاط نفسه بمنشفة ثم دخل حجرته فوجد وصيفا من وصفاء الفندق ينتظره برسالة من احدى النزيلات تدعوه للعب البريدج بعد العشاء فى جناحها الخاص . والرسالة بتوقيع البارونة فون هيجنز . وكان اشندن يتوق الى تناول عشائه فى حجرته وهو بملابس النوم ثم يطالع كتابا بجوار المدفأة . فهم أن يرفض الدعوة ، ثم خطر له أن الرفض فى مثل ظروفه غير مستحب ، بل يستحسن ان يظهر ساعة العشاء فى حجرة المائدة الكبرى . فلابد أن اخبار زيارة رجال الشرطة له قد ترددت على الالسنة . فمن الواجب ان يظهر أن هذه الزيارة لم تترك لديه اثرا سيئا . واحجامه عن الظهور فى قاعة المائدة ورفضه دعوة البارونة سيفسر تفسيرا سيئا .

وخطر بباله ايضا انه ربما كان المبلغ ضده من نزلاء الفندق . وكان اسم البارونة فون هيجنز من بين الاسماء التى حامت حولها ظنونه . فمن الطريف ان يلعب معها البريدج . ولذا قال للرسول انه يسره تلبية الدعوة ، ثم شرع يرتدى ملابس السهرة .

كانت البارونة فون هيجنز امراة نمساوية ، تتكلم الانجليزية والفرنسية بطلاقة تامة . وكان جدها لابيها سائسا انجليزيا فى يوركشير . صحبه معه الى النمسا احد الامراء . وكان السائس الانجليزى جميل الصورة ففتن احدى الفرندوقات واستغل تلك الحظوة بحيث اصبح فى نهاية حياته بارونا ووزيرا مفوضا للنمسا لدى بلاط احدى الامارات الايطالية .

والبارونة هى حفيدته الوحيدة ، تزوجت زواجا غير موفق ، ثم انفصلت عن زوجها واستردت اسم عائلتها . ولكنها لم تكن تذكر عن جدها سوى انه كان سفيرا . ولا تشير طبعا الى انه بدأ حياته سائسا . وقد علم اشندن هذه الحقيقة من فيتا عندما توثقت بينهما المعرفة ولاح له ان معرفة المزيد عن حياتها امر يقتضيه الحرص فى مهنته .

وعلم ايضا من فينا ان ايرادها الخاص لا يسمح لها بالحياة على هذا المستوى الباذخ فى جنيف . ولما كانت تتحلى بمزايا كثيرة تزكيها لمهنة الجاسوسية ، فمن قبيل الاحتياط يجب اعتبارها جاسوسة . وعلى هذا الاساس صار اشندن يراها زميلة فى المهنة ، مع اختلاف فى المعسكر .

وعندما نزل اشندن الى حجرة الطعام وجدها غاصة بالناس ، فجلس الى مائدته المعتادة ، ثم طلب ـ على حساب الحكومة البريطانية ـ زجاجة شمبانيا . والقت اليه البارونة بابتسامة خلابة ، وهى امراة تجاوزت الاربعين ، بيد انها انيقة رشيقة ذات جمال خلاب للغاية : شقراء ذهبية الشعر ذات ملامح دقيقة ، ومقلتين زرقاوين ، وانف مستقيم ، وبشرة بختاط فيها الورد باللبن ، ترتدى ثوب سهرة يبدى من جيدها الاتلع اكثر مما يخفى . ومع فخامة ثيابها لم تكن تتحلى بمجوهرات ، مما يدل على ان الدولة التى تستخدمها فتحت لها حسابا ضخما لدى دور الازياء . ولم تفتح لها حسابا لدى تجار المجوهرات .

وفى اثناء انتظار اشندن لاطباق الطعام جعل يجيل بصره فى القاعة . ومعظم الحاضرين اشخاصهم مألوفة لديه ، فمدينة جنيف فى ذلك

الحين كانت مهد الدسائس الدولية . وكان هذا الفندق مركزها الرئيسى . كنت تجد فيه فرنسيين وايطاليين وروسيين واتراكا ورومانيين ويونانيين ومصريين . نفر منهم هربوا من اوطانهم بسبب الحرب ، ولكن نفرا آخر منهم جواسيس بغير شك . فكان هناك مثلا بلفارى يعمل تحت رئاسة اشندن . ولكنه على سبيل الاحتياط لم يكلمه فى جنيف مرة واحدة . وهاهو ذا يتناول العشاء مع اثنين من مواطنيه ، وهناك مومس المانية صغيرة السن ذات عينين زرقاوين ووجه مثل وجه الدمية ، وهى دائمة التنقل على طول شاطىء البحيرة بين جنيف وبرن . ومهنتها تتيح لها الحصول على نتف من المعلومات لاشك ان رئاسة المخابرات الالمانية تعيرها اهمية كبرى . وهذه المومس تنتمى طبعا الى طبقة تختلف كثيرا عن طبقة البارونة ومجال نشاطها لا تستطيع ان تنشط فيه البارونة .

ولاحظ اشندن ايضا وجود الكونت فون هولزمندن ، وهو رئيس الجاسوسية الالمانية فى مدينة فيفى . وينتمى الى اسرة تصاهر العائلة القيصرية . وكان يوما ما يعيش فى لندن وهناك عرفه اشندن . ولما نشبت الحرب صار كل منهما يتجاهل الاخر . ولم يسبق للكونت أن وطئت قدمه هذا الفندق ، كما انه ليس من المعقول أن حضوره الليلة كان اعتباطا .

وتساءل اشندن هل لوجود الكونت الليلة علاقة بظهور الامير « على » فى قاعة المائدة على غير المألوف . والامير « على » مصرى من اقرب اقارب الخديو الذى عزله الانجليز عن عرش مصر لميوله التركية . وقبل اسبوع حضر الخديو تحت ستار من السرية الشديدة ، فامضى ثلاثة ايام فى الفندق مع الامير على فى جناحه الخاص للتشاور فى اثارة المتاعب لبريطانيا على ضفاف النيل . والامير على يقيم فى الفندق بصفة دائمة مع ابنتيه ومدير اعماله مصطفى باشا . ومن عادة الامير ان يتناول طعامه فى جناحه الخاص بمفرده . اما كريمتاه فمن النوع المتحرر جدا ، وتتعشيان مع السكرتير ومربيتهما الانجليزية العجوز الانسة كنج فى قاعة المائدة ، ثم تخرجان للسهر

الى الصباح فى المراقص الليلية . ولكن الامير الليلة خالف عادته وجلس يتعشى فى القاعة الكبرى .

والانسة كنج انجليزية كانت مربية للامير « على » من قبل . وقد حاول اشندن فى مبدأ اقامته ان يحييها باعتبارها مواطنة انجليزية ، ويعقد صلة وديةٍ معها تنفعه فى عمله ، ولكنها اظهرت برودا اوقفه عند حده ، حتى انها قالت له بالفرنسية ــ لانها ترفض التحدث بالانجليزية ! .

ــ لا اريد أن اتعرف الى غرباء !!

واصبحت هذه العجوز توليه ظهرها كلما التقت به وجها لوجه . وكان من المفروغ منه انها تلبس شعرا مستعارا بنى اللون . وفى احيان كثيرة كانت لا تحسن تثبيته فوق وجهها المغطى بالتجاعيد . بيد انها كانت تصر على وضع بقعتين حمراوين فوق وجنتيها ، وصبغ شفتيها بصباغ احمر صارخ . اما ملابسها فذات الوان فاقعة ، وقبعتها مما ترتديه الفتيات الصغيرات . ولكن حذاءها له دائما كعب مرتفع جدا . فلا عجب ان كان الناس يتلفتون فى الشارع ليحملقوا فيهــا بافواه مفتوحة .

وعلم اشندن ان الانسة كنج لم تزر انجلترا منذ التحقت بخدمة والدة الامير على . فتملكه الفضول لمعرفة ماعسى أن تــكون هــاتان العينان قد ابصرتاه فى اقبية الحريم فى غضون نصف قرن ، فمما ، لاشك فيه انها ادركت عهد اسماعيل ، وما كان فى ايامه من دولة طائلة لفانيات الحريم !

وعلم اشندن ايضا انه لم تعد لها فى وطنها انجلترا اسرة او اصدقاء، وان عواطفها معادية لانجلترا . وان خشونتها معه ترجع ولاشك الى اوامر مشددة من مخدومها أن تكون منه بالذات على حذر . فاخذ يتساءل ما الذى يدور فى راسها وهى جالسة تنظــر بعينيهــا الى كريمتى الامير على المتحررتين وهما تسهران كل ليلة وحدهمــا فى الملاهى السيئة السمعة حتى الصباح .

وبعد قليل انتهت البارونة فون هيجنز من تناول عشائها فجمعت منديلها وحقيبة يدها وتهادت خارجة والخدم ينحنون لهـــا على الجانبين . حتى اذا بلغت مائدة اشندن تمهلت وقالت لهبانجليزيتها المتقنة التى تكاد تخلو تماما من اللكنة الالمانية :

ـ انى لسعيدة انك ستتمكن الليلة من لعب البريدج ، فهل لك ان تأتى الى حجرة جلوسى لتتناول قهوتك ؟

ـ ما ابدع هذا الثوب !

ـ انه فظيع ! فلا ادرى الان ماذا افعل وقد امتنع على الذهاب الى باريس لشراء ثيابى . ولا أدرى لمـــاذا جر هؤلاء البروســـيون وطنى المسكين الى هذه الحرب الفظيعة ...

ورشقته بابتسامة خلابة ثم استأنفت تهاديها . ولم يفرغ اشندن من تناول عشائه الا بعد مدة ، وعندما نهض للانصراف كانت قاعة المائدة قد امست خالية تقريبا . وصعد الى الطابق الثانى وطرق باب البارونة ، ففتحت له على الفور واستقبلته مبسوطة اليدين فى مودة سابقة وجذبته الى الداخل . فاذا بالشخصين اللذين سيلعبان معهما هذه اللعبة الرباعية موجودان ، وهما الامير على وسكرتيره مصطفى باشا . ودهش اشندن دهشة شديدة . ثم قامت البارونة بالتقديم فى فرنسيتها الطلقة . وابدى مصطفى باشا حفاوة وذلاقة لسان . أما الامير فكان خجولا قليل الكلام .

ومصطفى باشا رجل ضخم الجسم بدين فى نحو الخامسة والاربعين له عينان واسعتان كثيرتا الحركة وشارب كبير أسود . يحلى رباط عنقه بماسة كبيرة ، ويزين راسه بطربوش احمر .

واخذت البارونة تطرى ادب اشندن ومؤلفاته وقدرته فى لعب البريدج . ولكن اشندن لم يغتر بهذا الاطراء ، لانه كان يعلم حدود تلك القدرة الحقيقية . انه لاعب جيد بين لاعبى الدرجة الثانية . وقد لعب امام احسن لاعبى العالم وادرك انه ليس من مستواهم . وظل حائرا فى السبب الذى دعا البارونة للجمع بينه وبين هذين المصريين المنفيين فى هذه الليلة . وغلب على ظنه ان البارونة هى التى حرضت

عليه رجال الشرطة السويسرية . ولذلك وجهت اليه الدعوة بعد أن فشلت خطتها فى القبض عليه لتنفى عن ذهنه الشك فيها .

وكان معظم الحديث أثناء اللعب عن جمال باريس وذكريات الامير فيها وعن مسكنه الفخم ، وما يضمه فى العاصمة الفرنسية من أفخم الرياش وأثمن التحف الفنية . واظهر اشندن عطفه واعجابه بالحركة القومية فى مصر وأنه يرى « فينا » أجمل عواصم أوروبا . فكان يرد على المجاملات بمجاملات مثلها ، وهو حريص على الا يظفروا منه بمعلومات تتجاوز مايمكنهم معرفته مما ينشر فى الصحف السويسرية. وخيل اليه أن هناك عملية جس نبض لمعرفة مدى استعداده لبيع مواهبه لمعسكر آخر . وكان جس النبض بطريقة لبقة للغاية .

وما أن دقت الساعة منتصف الليل حتى نهض الامير واقفا ، وقال :

ـ لقد تأخر الوقت . ولاشك ان مستر اشندن لديه عمل كثير فى الغد فلا يجمل بنا أن نبقيه ساهرا .

وفطن اشندن الى أن هذه اشارة له بالانصراف . فنهض مستأذنا وترك الثلاثة يتداولون فى الموقف وهو واثق انهم لم يظفروا منه بطائل وما أن دخل باب حجرته حتى شعر بتعب شديد ووجد مشقة فى فتح عينيه وهو يخلع ثيابه . وما أن رقد فى فراشه حتى استغرق فى النوم .

وخيل اليه انه لم ينم اكثر من خمس دقائق عندما ايقظه طرق متوال على الباب . واصغى برهة ثم هتف :

ـ من هناك ؟

ـ الوصيفة . افتح . عندى ما أقوله لك .

فنهض اشندن وهو يلوك اللعنات وأوقد المصباح ثم سوى شعره بأصابعه وفتح الباب . فرأى الوصيفة السويسرية وقد بدا من ملابسها انها ارتدتها فى عجلة شديدة ، ووجهها مكفهر .

ـ السيدة الانجليزية العجوز مربية الاميرتين المصريتين فى النزع الاخير ، وهى تلح فى حضورك .

ـ انا ؟ مستحيل . انا لا اعرفها . وهى كانت على مايرام هذا المساء .

ـ ولكنها تلح فى طلبك . هذا ماقاله الطبيب . فأرجو أن تسرع بالحضور لانها فى الرمق الاخير .

ـ لابد أن هناك خطأ . فهى لا يمكن أن تطلبنى .

ـ لقد ذكرت اسمك ورقم حجرتك . فأرجوك أن تسرع .

فهز اشندن كتفيه ولبس خفا ومعطفا ، ودس فى جيبه مسدسا صغيرا لا لانه يجد لاستعماله نفعا ، فهو يكره الاسلحة النارية ، بل لما يبعثه حمله فى نفسه من طمأنينة فى مثل هذا الظرف الغامض .

وحجرة الانسة كنج ترتفع فوق حجرة اشندن بطابقين . وفى الطريق دهش اشندن عندما عرف ان الساعة بلغت الثالثة . وعندما طرقت الوصيفة الباب فتحه مسيو بريديه نائب مدير الفندق . وكان يلبس فى رجله خفا وفوق بيجامته سترة بذلة السهرة انسوداء . فكان منظره مضحكا ، ولا سيما ان شعره المصفف فى العادة بعناية كان غاية فى الفوضى والتشعث . وأخذ الرجل يفرط فى الاعتذار الى اشندن لازعاجه قائلا :

ـ الف معذرة . ولكنها ظلت تلح فى طلبك . وقال الدكتور «اربو» انه لابد من ايقاظك .

ـ لا بأس

ودخل اشندن فاذا حجرة خلفية صغيرة جميع مصابيحها مضاءة، ونوافذها مقفلة ، وجميع ستائرها مسدلة . فكانت الحرارة شديدة. والطبيب السويسرى الملتحى الاشيب واقف بجوار الفراش . ورغم الارهاق الشديد كان يبذل عنايته كلها . وقام بريديه بالتعريف :

ـ هذا هو مستر اشندن الذى طلبته الانسة كنج . الدكتور اربو من كلية الطب بجامعة جنيف .

ومن غير ان ينطق الطبيب بكلمة واحدة اشار الى الفراش . وكانت نظرة واحدة كافية لاصابة اشندن بصدمة . فالشعر المستعار موضوع بجوار الفراش على كرسى . وراسها مغطى بطاقية بيضاء من

القطن وقميص نومها يرجع طرازه الى القرن الماضى . ووجهها مغطى بالكريم الذى استعملته لازالة المساحيق عن وجهها . وقد بدت ضئيلة الحجم جدا وهى راقدة فى فراشها كأنها طفلة . وزاد مظهر تقدمها فى السن . فلابد انها تجاوزت الثمانين حتى صارت اقرب الى الدمية منها الى البشر . دمية ساحرة عجوز تفنن فى صنعها فنان ساخر ، وكان الناظر اليها خليقا ان يظنها ميتة لولا هاتان العينان السوداوان ونظرتهما الثابتة .

وخيل الى أشندن ان تعبير نظرتها تغير حين رأته ، فقال بمرح مصطنع :

ـ يؤسفنى جدا يا آنسة كنج ان أراك بهذه الحالة .

فقال الطبيب :

ـ ان الآنسة كنج لا تستطيع الكلام . لانها اصيبت بنوبة أخرى عندما كانت الوصيفة توقظك . وقد حقنتها وربما استعادت القدرة على استخدام لسانها بعد برهة . فعندها ما تقوله لك .

ـ سأنتظر بكل ارتياح .

وخيل اليه انه لمح فى هاتين العينين السوداوين نظرة شكر على هذه الكلمة . وساد بعدها الصمت بين الاربعة المحيطين بفراش العجوز المحتضرة .

وأخيرا قطع بريديه الصمت قائلا :

ـ اذا لم يكن هناك ما أستطيع أن أصنعه هنا فمن المستحسن أن اعود الى فراشى . أليس كذلك ؟

فقال له الطبيب :

ـ اذهب انت ياصديقى . فليس بيدك ان تصنع شيئا .

فالتفت مسيو بريديه الى أشندن قائلا :

ـ هل تسمح لى بكلمة على انفراد ؟

ـ بالتأكيد .

ولمح الطبيب نظرة فزع مفاجئة فى عينى الآنسة كنج فقال برفق :

ـ لا تفزعى . السيد اشندن ليس منصرفا . سيبقى ما شئت انت أن يبقى .

وانتحى مساعد المدير العام للفندق باشندن ناحية خارج الباب ، وقال :

ـ هل استطيع أن اعتمد ياسيد أشندن على كتمانك ؟ من المزعج جدا ان يموت احد فى فندق . فالنزلاء الاخرون يستاءون من ذلك ويجب أن نبذل كل مافى وسعنا حتى لايعلموا شيئا . وساعمل على نقل الجثة فى أول فرصة . وساكون شاكرا لك غاية الشكر اذا لم تذكر أمام احد انه حدثت فى الفندق حالة وفاة .

ـ تستطيع ان تثق بذلك كل الثقة .

ـ لسوء الحظ ان المدير العام متغيب هذه الليلة ، واخشى انه سيسخط جدا عندما يعلم . وطبعا كان فى نيتى ان استدعى نقالة تحملها الى احدى المستشفيات ، ولكن الطبيب اكد لى انها ستموت لو حركناها . ورفض رفضا باتا ان يسمح لى بنقلها . فليس ذنبى ان تموت فى الفندق !

ـ قلما يراعى الموت مقتضى الحال .

ـ انها امراة عجوز وكان يجب أن تموت منذ سنوات طويلة . او على الاقل كان يجب على هذا الامير المصرى ان يعيدها الى وطنها فما حاجته الى مربية طاعنة فى السن بهذه الصورة ؟

ـ واين الامير الآن ؟ لقد ظلت فى خدمته سنوات طويلة . الم يكن ينبغى ان توقظوه ؟

ـ انه ليس فى الفندق . خرج مع سكرتيره ولعله يلعب الآن البكاراه . وعلى كل حال لا يسعنى الا ان ارسل من يبحثون عنه فى ارجاء جنيف .

ـ والاميرتان ؟

ـ لم تعودا من السهرة بعد . فهما مجنونتان بالرقص كل ليلة حتى الصباح . ولا ادرى فى اى ناد ليلى هما الآن . ولا اظنهما على كل حال ستشكرانى كثيرا اذا انا ارسلت فى طلبهما الآن بسببها . وعند عودتهما سيخبرهما عامل الاستقبال بما حدث لمربيتهما . وهى على كل حال لا تريدهما ، لاننى عندما ايقظونى ودخلت عليها الحجرة

سألتها هل تريد الامير أو الاميرتين فقالت بحدة : لا ، لا !

ـ هل كانت تستطيع الكلام عندئذ ؟

ـ بصعوبة . ولكن الامر الذى ادهشنى انها كانت تتكلم باللغة الانجليزية . مع انها لم تستخدم الا الفرنسية . وكانت تكره كل ماهو انجليزى .

ـ ولماذا طلبت حضورى ؟

ـ هذا مالا اعرفه . قالت أن لديها مايجب ان تقوله لك فى الحال . وكانت تعرف رقم حجرتك . وعارضت فى مبدأ الامر ، فمن حقك أن تنام مستريحا فى حجرتك التى تدفع اجرتها . ولكن الطبيب الح فى وجوب ايقاظك . وكانت هى أكثر الحاحا حتى انها عندما طلبت منها أن تنتظر الى الصباح انفجرت باكية .

وحدج اشندن المسيو بريديه بنظرة فاحصة ، فاذا ذلك الرجل السويسرى لا يجد فى الامر اى باعث على التأثر ..

ـ سأنتظر انا الى ان ينجلى الموقف .

ـ وانا سأذهب الى فراشى شاكرا لك تعاونك ووعدك بالكتمان

وعاد اشندن الى غرفة المحتضرة ، فحولت على الفور نظراتها اليه شعر بتأثر شديد ، وان من واجبه أن يقول لها كلمة ملطفة . ولكنه لم يدر ماذا يقول . وأخذ الطبيب يشرح له كيف اصيبت بذلك الفالج فجأة . وبعد قليل قال لاشندن :

ـ انها قد تبقى على هذا الوضع ساعات . وليس امامى ما اصنعه لها فلا فائدة من بقائى وامامى غدا يوم حافل بعيادة المرضى . ويمكنك ايقاظى بالتليفون اذا حدث اى تغيير فى حالتها .

ثم ربت على خدها المتفضن كأنها طفلة ، وقال لها :

ـ اجتهدى أن تنامى . وساعود لزيارتك فى الصباح .

وبعد أن ودع اشندن الطبيب الى الباب قال للوصيفة :

ـ وانت ايضا عندك عمل مرهق غدا . ماذا يبقيك ؟ اذهبى الى فراشك وحاولى أن تنامى .

ونهضت الوصيفة فانصرفت وبقى اشندن وحده بجوار فراش

المحتضرة حتى ظهر فى عينيها السوداوين مجهود يائس للكلام . ثم انهمرت الدموع من عينيها فأخرج اشندن منديله ، وجففهما ، وهو يقول لها :

ـ لا تزعجى نفسك . لا تبتئسى يا آنسة كنج . اصبرى قليلا وسوف تستطيعين قول كل ماتريدين .

ولكن نظرة القلق لم تذهب من عينيها . وبدات اعصابه تتمزق . فأطفأ المصابيح الا واحدا واشتدت رغبته فى تدخين سيجارة . ولكنه وجد الموقف غير مناسب . وظل صامتا ينظر بين الحين والحين نحوها ليجد عينيها مثبتتين فى وجهه . وهو لا يدرى لماذا بعثت اليه هو بالذات ؟ هل احست بحنين مفاجىء ساعة الموت الى بلادها ؟ ان كان الامر كذلك فلماذا لم ترسل الا اليه وبين النزلاء انجليز كثيرون ؟ انها تعلم انه جاسوس فلابد ان ما تريده ان تقوله له علاقة بهذه الصفة . انها معلومات يستطيع ان يستخدمها او يجب ان يعرفها قبل فوات الاوان .

وبعد ساعة بدات تضطرب . ولمح حركة على شفتيها ، فادنى اذنه من فمها ، وازداد الرعب اليائس فى نظرتها . ولم تستطع ان تقول له الا كلمة واحدة بصوت اجش وهى تتوثب فى جهد اخير للقيام . فحمل راسها وبين يديه تلبية لهذه الرغبة . هذه الكلمة الواحدة هى :

ـ انجلترا .

ثم ثقل راسها . ولما وسدها ادرك انها فارقت الحياة

الفصل الرابع

المكسيكى الأمرد

قال الكولونيل لاشندن :

ـ هل تحب المكرونة ؟

فأجابه أشندن متعجبا :

ـ ماذا تعنى بالمكرونة ؟ انك حين تسألنى هـذا السـؤال كأنك تسألنى هل تحب الشـعر . فانا احب كيتس واحب واردزورث واحب فيرلين واحب جيته . وانت حين تسـأل عن المكرونة هل تعنى منها الاسبجتى ام التليالى ام الريجـاتونى ام الفرمتشلى ام التوفالى ؟

ـ اعنى المكرونة بسائر انواعها .

ـ انا رجل يحب جميع الاشـياء البسيطة فى الحيـاة . أحب البيض المسلوق ، والمحار ، والبطارخ ، وسمك السلمون المشوى ، والحمل المشوى ، وصدر الاوز المشوى ، والبودنج . ولكن احب الاشياء البسيطة جميعا الى ، بل الشىء الوحيد الذى أستطيع أن آكله كل يوم لا بغير تفزز فحسب بل بشغف وتلهف هو المكرونة !

فقال الكولونيل عندئذ :

ـ يسرنى ان اسمع منك هذا الكلام لانى اريدك ان تذهب فى مهمة الى ايطاليا .

وكان أشندن قد حضر من جنيف لمقـابلة الـكولونيل فى مدينـة ليون . فوصل قطاره مبكرا قبل وصـول الكولونيل فقضى فترة بعد الظهر يتجـول فى أرجاء تلك المدينة المزدحمـة الثقيلة الظـل . وهما الآن جالسان فى مطعم كان أشـندن هو الذى قاد الـكولونيل اليه عند وصوله ، لانه مشهور بتقديم افضل طعام فى تلك المنطقـة من فرنسا . وكان المطعم مزدحما ، لان اهل ليون يحبون الطعـام

الجيد ، فلا تستطيع أن تضمن انصات الاذان لما يخرج من شفتيك ولهذا اكتفى الاثنان بالخوض فى موضوعات سطحية . وفى ختام الطعام قال الكولونيل :

ـ الك فى كأس اخرى من البراندى ؟

ـ كلا وشكرا .

فتناول الكولونيل الزجاجة وصب لنفسه كأسا ولاشندن مثلها ، وهو يقول :

ـ يجب ان ينتهز الانسان كل فرصة ممكنة للتحلل من قيود الحرب .

ووجد أشندن أن الاعتراض سيكون سخيف الوقع ، فتناول كأسه وأخذ يرشف منها فى بطء ، وطلب الكولونيل قائمة الحساب . ومع انه شخصية هامة ، وله سلطة اعزاز أو اذلال عدد ضخم من أتباعه ، وآراؤه لها وزنها عند من بيدهم مصائر الامبراطوريات ، الا انه كان يشعر دائما بالحرج الواضح جدا كلما اقتضت الحال أن يعطى هبة للخدم . فهو يخشى أن يبدو مغفلا ، اذا أعطاهم أكثر مما ينبغى بكثير . ويخشى أن يثير ازدراءهم اذا اعطى اقل مما يجب . فعندما جاء الساقى بقائمة الحساب اعطى الكولونيل اشندن بضع مئات من الفرنكات قائلا :

ـ ادفع انت الحساب . فأنا لا افقه الارقام الفرنسية .

ثم جاء الخادم بالقبعتين والمعطفين . وسأل اشندن :

ـ اتحب أن تعود الآن الى الفندق ؟

ـ من المستحسن ذلك .

وكان الوقت فى أوائل العام ولكن الجو كان دافئا فمشيا وكل منهما يحمل معطفه فوق ذراعه . وكان أشندن يعلم أن الكولونيل يفضل أن تكون له حجرة استقبال خاصة ملحقة بحجرته فراعى ذلك عندما حجز له مكانا فى الفندق . والى تلك الحجرة توجه الاثنان بمجرد دخولهما الفندق المشيد على الطراز القديم . ولذا كانت حجراته واسعة والاثاث ثقيلا مصنوعا من خشب الموجنى .

وكسوة المقاعد الضخمة من القطيفة الخضراء ، والجدران مزينة بمناظر من مواقع نابليون . ويتدلى من السقف شمعدان ضخم كان يستخدم للانارة بالغاز ثم ركبت عليه مصابيح كهربائية .

واحتل اشندن مقعدين جلس على احدهما وبسط قدميه فوق الآخر . فلما رآه الكولونيل على تلك الصورة قال :

ـ هذه فكرة لابأس بها .

ثم جذب مقعدا آخر وضع فوقه قدميه وتنهد بارتياح وسأل :

ـ اى حجرة هذه التى تجاورنا من هذا الجانب ؟

ـ حجرة نومك .

ـ ومن الجانب الآخر ؟

ـ بهو للمآدب .

فنهض الكولونيل وجاب أرجاء الحجرة ونظر وراء الستائر الثقيلة ثم عاد الى مقعده ، ورفع قدميه فوق المقعد الآخر ، وقال :

ـ من الافضل دائما أن يتخذ الانسان الحيطة .

ثم نظر الى أشندن بامعان وقد لاحت على شفتيه الرفيعتين ابتسامة يسيرة ، بيد أن العينين الشاحبتين المتقاربتين احتفظتا بما فيهما من برودة فولاذية . ولاشك أن تحديق الكولونيل كان خليقا أن يضايق اشندن لولا انه تعوده ، فأدرك أن الكولونيل يفكر فى كيفية مفاتحته فى الموضوع الذى يشغل ذهنه . ودام الصمت دقيقتين او ثلاثا . ثم قال أخيرا :

ـ انى انتظر قدوم شخص سيحضر لمقابلتى الليلة . وقطاره يصل فى الساعة العاشرة .

ونظر فى ساعة معصمه ، ثم قال :

ـ وهو معروف باسم المكسيكى الامرد .

ـ لماذا ؟

ـ لانه أمرد ولانه مكسيكى .

ـ هذا تفسير مقنع للغاية .

ـ وسيخبرك بنفسه عن كل ما يتصل به . لانه ثرثار . وقد

التقيت به وهو فى حالة افلاس تام . ويظهر انه كان مشتركا فى احدى الثورات بالمكسيك واضطر للفرار وليس عليه سوى ثوبه ، فر بجلده لان ثوبه كان شيئا لا يستحق الذكر حين قابلته . واذا اردت أن تظفر برضاه فيجب أن تناديه دائما بلقب جنرال . وهو يزعم انه كان جنرالا فى جيش هورتا ، وأن الامور لو سارت على مايرام لاصبح وزيرا للحربية هناك ، ولا ادرى ماذا من عظائم الامور ، وقد الفيته نافعا جدا لنا . ولا اكره فيه شيئا سوى استخدامه للعطور .

ـ وما علاقتى انا بموضوعه ؟

ـ انه مسافر الى ايطاليا . فقد كلفته هناك بمهمة شائكة . واريد منك ان تكون بقربه . لانى لست حريصا على ائتمانه على مبلغ كبير من المال فهو مقامر وشديد الولع بالفتيات . واظنك جئت من جنيف بجواز سفر باسم أشندن ؟

ـ اجل .

ـ لقد أحضرت الك معى جواز سفر دبلوماسيا باسم سومرفيل وعليه تأشيرات دخول فرنسا وايطاليا . واظن من الافضل ان تسافرا معا . وهو رفيق مسل ، واعتقد انكما يجب أن تتعارفا .

ـ وما هى المهمة بالضبط ؟

ـ لم يستقر رأيى بعد على المدى الذى يستحسن أن تعرفه عن هذه المهمة .

ولم يجب أشندن . وتبادلا نظرات جامدة خالية من الارتباط ، كأنهما غريبان يجلسان معا فى عربة قطار وكل منها يسائل نفسه عن الآخر ، اى صنف من الرجال عساه يكون ؟

وبعد برهة قال الكولونيل :

ـ لو كنت فى موضعك لتركت الجنرال يتحدث طول الوقت عن نفسه كما يشاء . فلن اخبره عنك اكثر من المعلومات الضرورية جدا . وسوف لا يتطفل عليك بأسئلة لانه على نوع معين من التهذيب على طريقته الخاصة .

ـ وماهو اسمه الحقيقى ؟

ـ انا دائما اناديه مانويل . ولا اظنه يستسيغ ذلك كثيرا . فاسمه مانويل كارمونا .

ـ يخيل الى مما تحاشيت ذكره عنه انه وغد عريق .

فابتسم الكولونيل بعينيه الشاحبتى الزرقة وقال :

ـ لا اظننى اذهب معك الى هذا الحد . والواقع انه لم يتعلم فى مدارس محترمة ومبادؤه فى الرياضة وفى التعامل ليست مثل مبادئي ومبادئك . فلا استطيع ان اترك وانا مطمئن علبة سجائر من الذهب وهو موجود بالقرب منها . ولكنه اذا خسر امامك نقودا فى البوكر ، وكان قد سرق علبة سجائرك الذهبية فلن يتردد فى رهنها كى يؤدى لك دين الشرف ، ولن يفلت اقل فرصة لاغواء زوجتك ، ولكنه اذا وجدك فى ضيق اقتسم معك اللقمة التى فى فمه . وتجرى دموعه مدرارا على خديه اذا سمع اغنية مثل « اننا نضمك يا ام النور » . ولكنك اذا اهنت كرامته فلن يتردد فى قتلك غير آسف . ويظهر انهم فى المكسيك يعتبرون مرور شخص بينك وبين شرابك اهانة كبيرة . فقد اخبرنى مرة أن هولنديا لا يعرف ذلك التقليد مر بينه وبين البار فاخرج مسدسه فى الحال وقتله بالرصاص !

ـ ولم يعاقب ؟

ـ كلا . اذ يظهر انه ينتمى الى اسرة من اكبر الاسر هناك . فسويت المسالة ونشر فى الصحف أن الهولندى انتحر . وهذا هو الواقع تقريبا لان المكسيكى الامرد لا يقيم وزنا كبيرا للحياة البشرية .

فاجفل اشندن وادرك ان رئيسه لم يقل له ذلك الكلام اعتباطا وسكت الكولونيل برهة ، ثم قال :

ـ وما اكثر الهراء الذى قيل عن قيمة الحياةالبشرية فى الواقع. فالقائد فى المعركة لايعتبر الرجال اكثر من أرقام . وليكونن ابله اذا سمح لنفسه بالنظر اليهم نظرة عاطفية باعتبارهم بشرا .

ـ ولكن البشر ليسوا مجرد ارقام !

ـ ليس هذا موضوعنا . المهم أننا تلقينا معلومات تفيد أن رجلا يسمى قسطنطين أندريادى قادما من استنبول ومعه وثائق معينة نريد الحصول عليها . وهو يونانى من أعوان أنور باشا . والانور باشا فيه ثقة كبيرة . وقد حمله رسائل شفوية على درجة كبيرة من السرية والخطورة بحيث لا يمكن تسجيلها على الورق . والرجل أبحر من ميناء بيريه فى اليونان فوق سفينة اسمها عتاقة وسينزل فى برنديزى ليتجه الى روما ، وسيسلم الوثائق فى السفارة الالمانية ، ويبلغ السفير رسائله الشفوية .

ـ فهمت .

وقد كانت ايطاليا فى ذلك الوقت لم تزل على الحياد . والجبهة المعادية تبذل كل جهدها كى تبقيها على الحياد . اما الحلفاء فكانوا يبذلون كل ما فى وسعهم كى تنضم اليهم .

ـ ونحن لا نريد ان يحدث اى اضطراب بيننا وبين السلطات الايطالية لان ذلك قد تكون له نتائج خطيرة جدا . ولكننا يجب أن نمنع أندريادى من الوصول الى روما .

ـ بأى ثمن ؟

فافترت شفتا الكولونيل عن ابتسامة ساخرة ، وقال :

ـ المال ليس عقبة على كل حال فى سبيلنا .

ـ ماذا تقترح أن نفعل ؟

ـ لا اظنك بحاجة الى شغل ذهنك بهذا السؤال .

ـ ولكن لى مخيلة خصبة .

ـ اريد منك ان تذهب الى نابولى مع المكسيكى الامرد . وهو شديد اللهفة على العودة الى كوبا . فاصحابه فيما يظهر ينظمون هناك حركة عسكرية وهو يريد أن يكون اقرب مايمكن من المكسيك لينزل ارضها فى اللحظة المناسبة ، وهو بحاجة الى المال ، وقد احضرت مبلغا كبيرا من الدولارات الامريكية معى ، سأسلمه اياه الليلة لتحتفظ به فى جيبك . وهى مجموعة من ذات الالف دولار تسلمها للمكسيكى الامرد فى مقابل الوثائق التى يحملها اندريادى .

ـ وهل يدرى ذلك المكسيكى ماهو مطلوب منه بالضبط ؟
ـ بالضبط .
وفى هذه اللحظة سمع طرق على الباب ثم فتح ووقف أمامهما المكسيكى الامرد :
ـ هاقد حضرت . طاب مساؤك ياكولونيل . يسعدنى ان اراك
فنهض الكولونيل وقال :
ـ هل كانت رحلتك لطيفة يامانويل ؟ هذا هو مستر سومرفيل الذى سيصحبك فى السفر الى نابولى .. الجنرال كارمونا !
وشد على يد اشندن بقوة حتى كاد يصرخ :
ـ لك يدان من فولاذ ياجنرال .
فنظر المكسيكى الى يديه ، ثم قال :
ـ لقد طليت اظافرى اليوم ولكن الطلاء لا يعجبنى .
وكانت الاظافر مقصوصة جيدا ومطلية باللون الاحمر وتلمع كالمرايا .
ومع أن الجو لم يكن باردا فقد كان الجنرال يرتدى معطفا من الفراء الاستراخان الفاخر . وكلما تحرك حركة يسيرة هبت موجة من العطر فملأت انفك . وقال الكولونيل له :
ـ اخلع معطفك ياجنرال واشعل سيجارا .
وكان المكسيكى الامرد رجلا طويل القامة ، اميل للنحول ، الا انك تحس بما له من قوة بدنية خارقة . وبذلته الانيقة زرقاء اللون يتدلى من صدره منديل حريرى انيق ، وفى معصمه سوار ذهبى . وملامحه اكبر من المعتاد وعيناه عسليتان لامعتان . ولكنه أمرد تماما . وجلده الاصفر ناعم كبشرة المراة . وليست له حواجب ولا رموش . وفوق رأسه شعر مستعار طويل له خصلات على طريقة الفنانين فكان منظره المتناقض مفزعا ، مضحكا ، سخيفا . ولكنه يستلفت نظرك ويستهويك بغرابة منظره واناقته .
وجلس الجنرال بعد أن رفع سرواله حتى لا يتكسر ولا ينبعج عند الركبتين . ثم قال له الكولونيل فى مزاح ساخر :

ـ خبرنى يامانويل : هل حطمت كثيرا من القلوب اليوم ؟
فالتفت الجنرال نحو أشندن وقال :
ـ ان صديقنا الفاضل الكولونيل يحسدنى على نجاحى المستمر مع الجنس اللطيف . وأنا اقول له دائما انه يستطيع أن يحظى بمثل نجاحى لو أنه استمع لنصائحى . فالثقة هى الشىء الوحيد الذى تحتاج اليه مع النساء . ومادمت لا تخاف الصد فثق أنك لن تجد الصد .
فقال الكولونيل :
ـ هراء يامانويل . فلابد أن تكون للمرء أساليبه الخاصة مع الفتيات . فهناك شىء فى شخصك لا تستطعن مقاومته .
فضحك المكسيكى الامرد راضيا عن نفسه بغير مواربة . وهو يتكلم الانجليزية باجادة تامة ، ولكن بلكنة اسبانية ، وقال :
ـ اما وقد سألتنى ياكولونيل عن عدد القلوب التى حطمتها اليوم فلا أبالى أن أخبرك أنى تجاذبت حديثا طويلا فى القطار مع امراة ضئيلة الحجم ، كانت قادمة لزيارة حماتها فى ليون . ولم تكن صغيرة السن جدا ، وجسمها انحف مما يروق لى فى النساء ، ولكنها كانت مقبولة . وقد اعانت على ازجاء ساعتين من الزمن باساوب لطيف .
فقال الكولونيل مغيرا موضوع الحديث :
ـ والآن لنشرع فى العمل .
ـ أنا فى خدمتك ياكولونيل . وهل المستر سومرفيل رجل عسكرى ؟
ـ كلا . انه مؤلف .
ـ الدنيا تتسع لشتى صنوف الخلق . وانا سعيد بمعرفتك يا مستر سومرفيل واستطيع أن اقص عليك حكايات كثيرة تثير اهتمامك . وانا واثق اننا سنتآلف . فلك ظل خفيف . وانا شديد الحساسية لخفة الظل . والحق أقول لك اننى عبارة عن حزمة من الاعصاب . فاذا جمعتنى الظروف بشخص منفر ثقيل الظل انفلت زمام اعصابى !

ـ آمل أن نحظى برحلة لطيفة .

وعندئذ التفت المكسيكى الى الكولونيل وقال :

ـ متى يصل صاحبنا الى برنديزى ؟

ـ موعد ابحاره من بيريه على السفينة عتاقة فى اليوم الرابع عشر من الشهر . ويستحسن أن تكون فى برنديزى لانتظارها .

ـ انا متفق معك فى هذا .

وقام الكولونيل فجلس على حرف المنضدة ويداه فى جيبه : فبدا فى سترته العسكرية المشعثة العتيقة على نقيض صاحبنا المكسيكى فى اناقته المفرطة . وبدا يلقى تعليماته :

ـ مستر سومرفيل لا يعرف شيئا تقريبا عن المهمة التى عهدنا بها اليك . ولا احب ان تخبره باى شيء . وافضل ان تسترشد بآرائك الخاصة وفراستك . ولديه تعليمات أن يسلمك الاموال التى تحتاج اليها فى عملك . ولكن العمل نفسه من شانك وحدك . واذا احتجت عند الضرورة القصوى لاستشارته ، فلا بأس .

ـ قلما اسال احدا النصح . ولا آخذ ابدا بنصح احد .

واذا اضطربت الامور فانا واثق انك ستبقى مستر سومرفيل بعيدا عن الموضوع كلية . فيجب باى شكل الا يزج به فى مازق .

فقال المكسيكى الامرد باباء وشمم :

ـ انا رجل شريف ياكولونيل . وخير لى ان يمزقونى اربا من ان اشى باصدقائى .

ـ وهذا ماقلته لمستر سومرفيل عنك . وقد اصدرت اليك التعليمات ايضا فى حالة نجاحك فى مهمتك نجاحا كاملا ان يسلمك المبلغ المتفق عليه فى مقابل الاوراق التى حدثتك عنها . اما الوسيلة التى ستحصل بها على تلك الاوراق فليست من شانه .

ـ هذا امر مفروغ منه . ولكن هناك موضوعا واحدا احب ان اجلوه تماما . فانا حريص ان يفهم مستر سومرفيل اننى لم اقبل هذه المهمة التى عهدتم بها الى من اجل المال .

فقال الكولونيل بجد تام :

ـ هو يفهم هذا تمام الفهم .

ـ انا مع الحلفاء روحا وجسما . لانى لا أستطيع ان اغتفر للالمان خرقهم لحياد البلجيك . واذا قبلت المال الذى عرضتموه على فذلك لاننى وطنى مخلص قبل كل شيء . هل استطيع أن اثق فى كتمان مستر سومرفيل ؟

فاومأ الكولونيل براسه . وعندئذ التفت المكسيكى الى أشندن :

ـ هناك حملة تجهز لتحرير وطنى المنكود من أيدى الطغاة الذين يستغلونه ويخربونه . وكل بنس اتقاضاه سينفق فى شراء السلاح والذخيرة . اما أنا شخصيا فلا حاجة بى الى المال . فأنا جندى واستطيع أن اعيش على لقمة جافة وحفنة من الزيتون . وليست لى فى الحياة الا ثلاثة مشاغل تليق بالسيد المهذب : الحرب ولعب الورق والنساء . ولا يتكلف الانسان شيئا كى يحمل بندقيته على كتفه ويلوذ بالجبال . فالحرب عندنا حرب عصابات حقيقية لا مثل حربكم بالفرق والمدافع . واما النساء فيحببنى لشخصى بغير نظر الى المال . اما لعب الورق فأنا اربح فيه فى معظم الاحيان .

وشعر اشندن باستلطاف شديد لهذا المخلوق المتعجرف المزخرف المعطر الذى يتشدق بالتقشف . أجل هو مضحك فى سخافة تفكيره ولكنه لا يوحى اليك انه رجل يستهان به . فثقته بنفسه لا تخلو من مهابة وفخامة .

ـ واين حقيبتك يامانويل ؟

ـ تركتها فى المحطة .

ـ مستر سومرفيل يحمل جواز سفر دبلوماسيا . ففى استطاعته ان يضم حقيبتك الى حقيبته عند الحدود حتى لاتخضع للتفتيش .

ـ ليس فى حقيبتى الا اشياء قليلة جدا . عدد من البدل وملابس داخلية وقمصان . ولكن قد يكون من المستحسن أن يتفضل مستر سومرفيل بالاهتمام بحقيبتى . فقد اشتريت اثنتى عشرة بيجامة حريرية من باريس واخشى ان يتقاضوا عليها رسوما .

ونظر الكولونيل الى أشندن ، وسأله قائلا :

ـ وماذا عنك انت ؟

ـ عندى حقيبة واحدة فى حجرتى .

ـ يحسن ان ترسلها الى المحطة لان قطاركما يقوم فى الواحدة وعشر دقائق بعد منتصف الليل .

وكانت هذه اول مرة يسمع فيها اشندن انه سيسافر هذه الليلة . ولكنه لم يزد على أن قال :

ـ وهو كذلك .

ونهض الكولونيل واقفا وهو يقول :

ـ سآوى الى فراشى . ولا ادرى ماذا تريدان أن تصنعا فى المدة الباقية .

فقال المكسيكى الامرد :

ـ سأتمشى فى ليون . فأنا احب الناس . اقرضنى مائة فرنك ياكولونيل من فضلك فليست معى « فكة » .

فأخرج الكولونيل حافظة نقوده واعطى الجنرال المبلغ الذى طلبه ثم التفت الى اشندن ، وسأله :

ـ وانت ماذا ستصنع ؟ هل ستنتظر هنا ؟

ـ كلا . سأذهب الى المحطة واجلس فى الاستراحة للقراءة .

ـ يستحسن أن تشربا كأسا من الويسكى بالصودا قبل انصرافكما مارايك فى ذلك يامانويل ؟

ـ هذا كرم منك ياكولونيل . ولكنى لا اشرب الا الشمبانيا والبراندى .

فأمر الكولونيل باحضار البراندى والصودا . وصب كل من اشندن والكولونيل لنفسه كأسا . اما المكسيكى الامرد فملأ كوب ماء من ذلك البراندى الفاخر وشربه صرفا فى جرعتين ! ثم نهض واقفا ولبس معطفه المصنوع من الفراء . ثم تناول قبعته السوداء بيسراه ومد يمناه الى الكولونيل قائلا :

ـ اتمنى لك ياكولونيل ليلة طيبة واحلاما سعيدة . ولست اتوقع أن نلتقى فى وقت قريب .

ـ لا تفسد الامور يامانويل . وان افسدتها اطبق فمك .

ـ قيل لى انه فى احدى كلياتكم التى يتدرب فيها ابناء الاشراف على ان يكونوا ضباطا فى البحرية توجد حكمة مكتوبة بحروف من ذهب وهى : « لا وجود لكلمة المستحيل فى البحرية البريطانية » . وانا ايضا ياكولونيل لا اعرف معنى كلمة الفشل .

ـ هذه كلمة لها مترادفات كثيرة على كل حال .

فأعرض الجنرال عنه وقال لاشندن وهو منصرف :

ـ سألتقى بك فى المحطة يامستر سومرفيل .

وبعد انصرافه نظر الكولونيل الى اشندن وهو يبتسم ابتسامته المعهودة التى تنبىء عن دهاء شديد وسأله :

ـ والآن مارايك فيه ؟

ـ انه مغرور كالطاووس . فهل حقا يلقى نجاحا مع النساء بمنظره هذا المرعب ؟ وما الذى يجعلك تثق به ؟

فضحك الكولونيل وجعل يفرك راحتى يديه فى حركة اغتسال وهمية :

ـ ظننتك ستحبه . فهو شخصية طريفة . اليس كذلك ؟ واظن انه فى وسعنا ان نثق به . سأعطيك الآن تذكرتى السفر والنقود كى تتصرف لانى اريد ان انام .

وبعد عشر دقائق كان اشندن فى طريقه الى المحطة وحقيبته الوحيدة فوق كتف حمال . وكان باقيا امامه اكثر من ساعتين ، فجلس فى مقعد وثير بحجرة الانتظار ، والاضاءة بها جيدة وشرع يطالع رواية . ولما اقترب موعد وصول القطار من باريس كى يقلهما مباشرة الى روما ولم يظهر للمكسيكى الامرد اثر بدا اشندن يشعر بالقلق وخرج الى افريز المحطة ليبحث عنه .

واعطيت الاشارة بقرب قدوم قطار روما السريع ولا اثر للمكسيكى الامرد ايضا . ووصل القطار الى المحطة ولم يصل المكسيكى . فاستولى الفزع على اشندن . فأخذ يروح ويجىء وهو يتلفت كالمجنون على غير طائل .

ولم تكن فى القطار عربات نوم . فاحتل مقعدين فى الدرجة الاولى ثم وقف فى النافذة يجيل نظره فى الناس ثم ينظر الى ساعة المحطة. ولما كان السفر من غير رفيقه لا فائدة منه فقد قرر اشندن أن يغادر القطار بحقيبته بمجرد صدور الاشارة للقطار بالتحرك .

وبقيت ثلاث دقائق . ثم دقيقتان . ثم دقيقة . وأصبح افريز المحطة خاليا تقريبا . واذا به يرى المكسيكى الامرد قادما يتبعه حمالان معهما حقائبه . وفى صحبته رجل بدين . وهو يمشى متبخترا . ولمح اشندن فلوح له بيده ، ثم قال بصفاقة :

ـ اهذا انت ايها العزيز ؟ لقد كنت اتساءل ماذا حدث لك ؟

ـ يا الهى ! اسرع يارجل والا فاتك القطار !

ـ اطمئن . فأنا لا يفوتنى القطار ابدا . هل حصلت على مقعدين طيبين ؟ ان ناظر المحطة فى الراحة ، وهذا نائبه .

ورفع الرجل البدين قبعته تحية لاشندن . ثم استطرد المكسيكى.

ـ ولكن هذه عربة عادية . واخشى انى لا أستطيع ان اسافر فيها . ولاشك انك تستطيع ان تدبر لى شيئا خيرا من هذا ايها العزيز .

فأسرع نائب الناظر البدين بالانحناء ، قائلا :

ـ بالطبع ياسيدى الجنرال . سأدبر لك صالونا خاصا .

واخذهما الرجل الى صالون خاص يصلح مقعداه الكبيران سريرين . وابدى المكسيكى ارتياحه وسمح للحمالين بترتيب حقائبه ثم مد يده فصافح نائب الناظر ، وهو يقول له :

ـ لن انساك . وفى اول فرصة ارى فيها الوزير سأحدثه عن اهتمامك براحتى .

ـ هذا كرم منك ياجنرال . وساكون مدينا لك بالشكر .

ونفخ الرجل فى صفارته فقام القطار . وعندئذ انفجر اشندن:

ـ لماذا تأخرت حتى الثانية الاخيرة ؟ ماذا يكون من امرنا لو اننا لم ندرك هذا القطار ؟

ـ ياصاح ! لم يكن هناك اقل احتمال لفوات القطار . فعند

وصولى من باريس هذا المساء قلت لناظر المحطة أننى الجنرال كارمونا القائد العام للقوات المكسيكية المسلحة . وأننى سأقضى هنا فى ليون بضع ساعات اعقد فيها مؤتمرا مع ماريشال انجليزى . وطلبت منه أن يحجز لى القطار اذا تأخرت بضع دقائق . ولمحت الى أن حكومتى قد تفكر فى الانعام عليه بوسام . ولما كنت قد مررت بليون من قبل واعجبتنى فتياتها وان كن لسن كفتيات باريس ، فقد احببت ان استمتع بهن الى اخر دقيقة . والان هل لك فى جرعة من البراندى قبل أن تنام ؟

ـ كلا واشكرك .

ـ كما تحب . أنا دائما اشرب كوبا من البراندى قبل النوم كى يهدىء اعصابى . فأنا حزمة من الاعصاب كما قلت لك .

وفتح احدى الحقائب واخرج منها زجاجة رفعها الى فمه وشرب منها جرعة كبيرة ثم مسح شفتيه بظهر يده واشعل سيجارة وخلع حذاءه ورقد ، فأطفأ اشندن المصباح الكبير وترك نورا خافتا . وساد الصمت لحظة ، ثم قال المكسيكى الامرد :

ـ لم يستقر رأيى حتى الآن ايهما امتع لى : ان انام وعلى نمى قبلات امراة حسناء ام سيجارة ؟ هل ذهبت الى المكسيك ؟ سأحدثك عن المكسيك غدا . طابت ليلتك .

وسرعان ما سمع اشندن تنفسه الثقيل المنتظم فأدرك أنه نام . وبعد قليل اغفى اشندن . وبعد قليل استيقظ على وقوف القطار وقوفا مفاجئا ، وفى لمح البصر كان المكسيكى واقفا ومسدسه فى يده وهو يصيح :

ـ ما هذا ؟

ـ لا شىء . ربما كانت اشارة بأن الطريق مشغول .

فتهاوى المكسيكى على فراشه واضاء اشندن النور ، وقال :

ـ انك تستيقظ بسرعة رغم نومك العميق .

ـ لابد من هذا فى مهنتى .

وكان على لسان اشندن أن يسأله عن هذه المهنة اهى القتل ام

التآمر ام قيادة الجيوش . ولكنه آثر السلامة . وفتح الجنرال حقيبته واخرج الزجاجة . وبعد ان عزم على اشندن بجرعة ورفضها ، رفع الزجاجة الى فمه وصب منها فى حلقه كمية كبيرة من البراندى ثم اشعل سيجارة وهو يتنهد . ودهش اشندن لانه على الرغم من كميات الشراب الضخمة كان يبدو مفيقا تماما ، لا يبدو عليه انه شرب طول الليل سوى عصير الليمون !

وبعد قيام القطار نام اشندن . وعندما استيقظ فى الصباح وتقلب فى فراشه وجد المكسيكى مستيقظا يدخن سيجارة والارض تحت قدميه مفروشة بأعقاب السجائر وقد تلبد جو الغرفة بالدخان الازرق . وكان قد رجا اشندن اول الليل الا يفتح النافذة بحجة ان هواء الليل خطر على الصحة . ونهض الرجل الى الحوض الملحق بالديوان فجعل يغسل اسنانه ويتغرغر بصوت عال . ثم اخرج من حقيبته زجاجة كولونيا صب منها قليلا فوق منشفة وجعل يدلك بها وجهه ويديه . ثم تناول مشطا ونسق به شعره المستعار فى عناية . ثم استخرج زجاجة من العطر ذات مضخة رشاشة وضمخ بها قميصه ومنديله ، ثم التفت الى اشندن :

ـ انا الآن على أتم استعداد لمجابهة العالم أجمع . استعمل لغسيل وجهك هذه الكولونيا فهى من أحسن منتجات باريس .

ـ شكرا لك . لا احتاج لغسيل وجهى الا للماء والصابون .

ـ ماء ؟ انا لا استعمل الماء الا فى الاستحمام . فهو يفسد بشرة الوجه .

وقرب الحدود تذكر اشندن المسدس الذى رآه عند وقوف القطار فى يد الجنرال فأخذه منه لانه بفضل جواز السفر الدبلوماسى معفى من التفتيش ، وعندئذ قال الجنرال :

ـ سأعطيك ايضا مديتى . فالمدية هى سلاحى المفضل . لانها سلاح أنيق . اما المسدس فيستطيع ان يستعمله اى ابله .

وبحركات خاطفة خيل لاشندن انها حركة واحدة فك ازرار صداره واخرج من حزامه مدية طويلة فظيعة الشكل قدمها الى اشندن فخورا وهو يقول :

ـ انها من خير أنواع الصلب فى العالم . شفرتها حادة كشفرة الموسى . وقوية كالخنجر . تستطيع بها أن تقطع ورقة سيجارة او تسقط شجرة بلوط على السواء . وتبدو وهى مقفلة كمدية تلاميذ المدارس .

ـ هل معك أسلحة اخرى ؟

ـ ليس سوى يدى . ولكن رجال الجمرك لن يرتابوا فيهما .

وعندئذ تذكر اشندن قوة قبضته عندما صافحه اول مرة فسرت الرعدة فى جسده . وكانتا يدين عريضتين طويلتين ناعمتين . لا اثر على ظهريهما ولا على المعصمين للشعر . اما الاظافر فمقصوصة قصا مدببا أنيقا ومطلية باللون اللامع ، ومع ذلك ففيها شىء مخيف .

الفصل الخامس

المرأة السمراء

وعند وقوف القطار للتفتيش فى الحدود تجاهل كل من الجنرال كارمونا واشندن صاحبه . وبعد استئناف السير اعاد اشندن الى المكسيكى الامرد المسدس والمدية . فتنهد الجنرال قائلا :

ـ الآن اشعر بمزيد من الارتياح . وما رايك فى ان نلعب الورق لتمضية الوقت ؟

ـ لا مانع عندى .

ففتح المكسيكى الامرد حقيبته مرة اخرى واستخرج من احد اركانها أوراق اللعب . وكان الورق الذى بيد اشندن جيدا ولكن الجنرال كان يكسب دائما . وفتح اشندن عينيه تماما لانه اعتقد ان خصمه من الجائز ان يعمد الى الغش ، ولكنه لم يكتشف شيئا يدل على ذلك . واستمرت خسارته دورة بعد دورة . وتكدست هذه الخسائر الى ان قاربت الالف فرنك ، وهو مبلغ كان يعتبر حينئذ غير صغير . وكان الجنرال يدخن باستمرار سجائر لا تحصى يلفها بنفسه بحركة من اصبعه ، ولعقة من لسانه ، فى سرعة لا يتصورها العقل . واخيرا استلقى فى مقعده وسأله :

ـ بهذه المناسبة ياصديقى ، هل تدفع الحكومة البريطانية لك خسائرك فى لعب الورق حين تكون فى مهمة رسمية ؟

فقال اشندن باستغراب :

ـ كلا بالطبع .

وعندئذ قال الجنرال بوقار :

ـ اذن فى هذه الحالة اعتقد انك خسرت مافيه الكفاية . ولو ان خسائرك كانت تضاف الى حساب نفقاتك الرسمية لاقترحت عليك أن تستمر فى اللعب الى ان تبلغ روما . ولكنك شخص ظريف خفيف الظل ولا اريد أن اربح المزيد من نقودك الخاصة .

ثم جمع أوراق اللعب ونحاها جانبا . وأخرج اشندن حافظة نقوده واستخرج منها بضعة أوراق مالية قدمها الى المكسيكى فأحصاها ثم وضعها بعنايته المعهودة فى حافظته . ومال الى الامام وربت على ركبة اشندن :

ـ انى أحبك فأنت متواضع وغير متكلف وليست فيك عجرفة مواطنيك . وانا واثق أنك ستتقبل نصيحتى لك بالروح التى أملتها على . لا تلعب الورق بعد اليوم مع أشخاص لا تعرفهم !

فشعر اشندن بالخزى ولعل ذلك ماظهر على وجهه فقد تناول المكسيكى يده وهتف قائلا :

ـ هل جرحت شعورك ياعزيزى ؟ ماكنت لاقدم على ذلك لاى سبب من الاسباب . وانا أشهد الحق انك لا تلعب الورق اسوأ من معظم اللاعبين . فليس الذنب فى الخسارة ذنبك . ولو أننا كنا سنبقى مدة أطول معا لعلمتك كيف تكسب فى اللعب . فالانسان انما يلعب الورق كى يكسب مالا ، فليس للخسارة معنى .

فضحك اشندن ضحكة فجة ، وقال :

ـ كنت اظن أنه فى الحب والحرب فقط تكون جميع الوسائل جائزة !

فضحك الجنرال وقال :

ـ يسعدنى أن أراك تبتسم . فهكذا يجب أن يتقبل الانسان الخسارة . وانى ارى الآن أنك رجل ذو عقل وذو فطنة ،وتحسن تقبل الامور بصدر رحب ، ولذا ستبلغ فى الحياة مبلغا حسنا . فهذه أدوات الوصول الصالح . وعندما أعود الى المكسيك ، واسترد ممتلكاتى وضياعى ، يجب أن تأتى للاقامة معى هناك . وسوف استضيفك فى مستوى ملكى ، فتركب افضل جيادى وسنذهب الى مصارعة الثيران معا . واذا راقت فى عينيك فتيات فما عليك الا ان تقول كلمة واحدة حتى يكن طوع امرك !

وشرع الجنرال يروى لاشندن امر الممتلكات الزراعية الشاسعة والحصون والمناجم التى يملكها فى المكسيك والتى صادرها أعداؤه .

وحدثه عن الابهة الاقطاعية التى كان يعيش فيها . ولم يكترث اشندن هل كان مايقوله الجنرال صدقا او كذبا . فحسبه أن عباراته الرنانة كانت مثقلة بثمار الخيال ومعطرة بأريج الاسطورة . كانت صورة رومانسية رائعة . لانه فى الواقع كان يصف حياة باذخة ، كأنما تنتمى الى عصر آخر من عصور البشرية . وكانت اشارات يديه من البلاغة فى التعبير بحيث تمد أمام عين العقل افاقا بأسرها من المراعى الخضر والرياض اليانعة والجبال التى تغطى سفوحها الغابات وتغطى قممها الثلوج ، حتى اذا جنحت الشمس للمغيب امتلأت الربى بقطعان لا يحصيها العدد من الماشية عائدة الى المزاود . وفى الليالى المقمرة يتهادى النسيم معطرا بأريج الارض الخصبة ، وغناء المترنمين على نغمات الجيتار يسكر اعطاف الليل ..

ـ ... كل هذا خسرته يا صاحبى . خسرت كل شىء وفررت بحياتى الى باريس . وهناك اضطررت أن اكسب قوتى باعطاء دروس فى اللغة الاسبانية للامريكيين . أو بمصاحبتهم لادلهم على أماكن المتعة واللهو فى أزقة باريس . واذا انا الذى كنت انفق الف « دوروس » على غدائى أو عشائى ، قد بت استجدى خبزى كأننى هندى أحمر أعمى . وأنا الذى كنت أجد لذتى فى تزيين معصم امرأة حسناء بسوار من الماس الثمين ، اضطرتنى الحاجة الى قبول بذلة جديدة من حيزبون اكبر من أمى . ولكن صبرا أيها الصديق . فالعسر لا يدوم ، وقد حان الوقت الذى نضرب فيه ضربتنا .

ثم تناول أوراق اللعب وأخذ يرتبها فى صفوف وهو يقول :

ـ فلتر ماذا تقول الاوراق . فالورق لا يكذب . آه لو أننى آمنت بالورق ايمانا كاملا كما ينبغى ؟ اذن لتجنبت الاقدام على العمل الوحيد فى حياتى الذى ثقلت وطأته على نفسى . ان ضميرى مستريح فقد فعلت ماكان اى رجل حريا ان يفعله فى مثل ظروفى ، ولكنى آسف لان الضرورة الجأتنى الى اتيان عمل كنت أتمنى لو تجنبته ! لقد حذرنى الورق وانذرنى . انى لا انكر ذلك فقد كان التحذير واضحا قاطعا . اظهر لى الورق الحب وامرأة سمراء

والخطر والخيانة والموت فى مجموعة واحدة . وكان ذلك واضحا اراه كما ارى الانف الذى فى وجهك . واى ابله كان حريا ان يدرك معنى ذلك النذير . فما بالك وانا الرجل الذى تعود طول حياته على استعمال الورق . فلا يكاد يوجد عمل اقدم عليه من غير ان استشير الورق . فلا عذر لى .. انكم يا ابناء الشعوب الشمالية لا تعرفون ماهو المعنى الحقيقى للحب . لا تعرفون كيف يذود النوم عن العين ، وكيف يذود الشهية للطعام حتى يذوى المرء كأنه صريع الحمى . لا تعرفون كيف يستولى الجنون على المحب حتى لا يبالى بشىء فى سبيل اطفاء رغبته الجامحة . ورجل مثلى حرى ان يقدم على اية حماقة او اية جريمة اذا احب . اجل يا سنيور ! وخليق ايضا بدافع الحب ان يقدم على اعمال البطولة . فاينما يوجهه الحب يتجه علوا او دنوا . يجتاز جبالا اعلى من افرست ، ويعبر بحارا اعتى من الاطلنطى . يمسى الها او شيطانا كيفما يشاء له الحب . وكانت النساء دائما آفتى !

ومرة اخرى اخذ المكسيكى الامرد ينظر فى الاوراق يبسطها وينسقها . يتناول بعضا ويترك بعضا آخر .

ـ لقد احبتنى اعداد لا تحصى من النساء . ولست اقول ذلك للتفاخر ، وليس عندى تفسير لذلك ، فهى مسألة واقع وكفى . اذهب الى مدينة المكسيك وسل الناس هناك عما يعرفون عن مانوين كارمونا وغزواته النسوية . سلهم كم امرأة استطاعت ان تصمد وتقاوم مانويل كارمونا !

وكان اشندن يرقبه وقد قطب حاجبيه قليلا . فهو لا يدرى هل المكسيكى الامرد مقتنع فعلا بسحره الذى لا يقاوم ، ام انه ماهر فى الكذب ..

ـ هناك شىء اسمه القدر .. وما من قوة على الارض تستطيع ان تمحوه او تغيره . وانا رجل شجاع ، ومع ذلك تملؤنى الرهبة امام الورق الذى يحمل لى نذير القدر ...

وكانت قد بقيت فى يده اربع ورقات مقلوبة جعل يتحسس

ظهورها ولا يجسر على كشفها وقد ارتسم على وجهه قلق لا يحاول أن يخفيه .

وعاد يقول :

ـ هذه الاوراق الاربعة تحمل كلمة القدر . وانا ارتعد امامها .

وفجأة تغير وجهه وسأل اشندن :

ـ ماذا كنت اقولَ لك ؟

ـ كنت تقولَ لى ان النساء يجدن سحركَ لا يقاوم .

ـ فعلا . ولكنى التقيت بامراة واحدة قاومتنى . رأيتها أول مرة فى بيت من بيوت اللهو فى مدينة المكسيك . كانت تهبط السلم وانا اصعده . ولم تكن جميلة للغاية ، فقد حظيت بمئات من النساء اجمل منها . ولكن كان فيها شيء ما استلفت نظرى . فقلت للمرأة العجوز التى تدير ذلكَ البيت أن تبعث بها الى . وهذه المرأة العجوز ستعرفها حتما عندما تذهب الى مدينة المكسيكَ . فهى اشهر مديرات بيوت اللهو ويسمونها هناك المركيزة . وقالت لى المركيزة أن هذه الفتاة ليست من المقيمات فى الدار ، ولكنها عضو منتسبة تاتى بين الحين والحين لمهمات خاصة ، وتنصرف الى بيتها . فطلبت منها أن تستدعيها فى المساء التالى ولا تسمح لها بالانصراف الى ان احضر . ولكنى فى الليلة التالية تاخرت ، وعندما وصلت اخبرتنى المركيزة أن الفتاة قالت لها انها لم تتعود الانتظار وانصرفت . وانا رجل متسامح لا ابالى ان تتدلل المرأة فىَ بعض الاحيان ، فهذا جزء من سحرهن الخاص . ولذا ضحكت وارسلت الى الفتاة ورقة من ذات المائة دوروس ، ووعدت ان اكون فى الموعد المحدد بالضبط فى اليوم التالى . ولكن عندما ذهبت مبكرا فى اليوم التالى ردت الى المركيزة المائة دوروس ، وقالت لى ان الفتاة لاتشعر نحوى بميل . فضحكت من وقاحتها ، وخلعت من اصبعى خاتما ماسيا ، وقلت للمركيزة أن تعطيها الخاتم وترى هل سيتغير رأيها فى ام لا . وفى الصباح اتتنى المركيزة مقابل خاتمى الماسى بوردة حمراء . فلم ادر هل اضحكَ ام اغضب . وانا لست متعودا على

الاستهانة بعواطفى . ولا أتردد فى انفاق المال ، فما نفع المال مالم نبعثره على النساء الحسان ؟ وقلت للمركيزة أن تذهب الى الفتاة وتخبرها انى سأعطيها الف دوروس اذا تعشت معى تلك الليلة . وسرعان ما عادت العجوز بجواب الفتاة أنها مستعدة للحضور على شرط ان أسمح لها بالعودة الى بيتها بعد انتهاء العشاء مباشرة ! وقبلت الشرط وانا اهز كتفى لانى لم أعتقد أنها جادة . وظننت انها تقول ذلك كى تزيد من رغبتى فيها . وحضرت الفتاة لتناول العشاء فى دارى . هل قلت لك انها لم تكن جميلة ؟ لا تصدقنى ؟ لقد كانت أجمل وافتن امرأة قابلتها فى حياتى . سحرتنى . كانت فاتنة ظريفة حاضرة البديهة ، لها كل سحر الاندلسيات . كانت جديرة أن تعبد ، وسألتها لماذا استهانت بى على تلك الصورة ؟ فضحكت هازئة ولم تجب . وحاولت استمالتها وبذلت فى ذلك غاية جهدى . ولكن ما أن انتهينا من العشاء حتى نهضت من مقعدها قائمة وألقت على تحية المساء ايذانا بالانصراف . ففغرت فمى وسألتها الى أين هى ذاهبة ؟ فقالت اننى وعدت بأن أتركها تنصرف بعد العشاء مباشرة . وقد وثقت بى لانى رجل شريف يجدر به أن يفى بوعده . واخذت اقنعها واتوسل اليها ، ثم ثرت ولكن الفتاة لم تقبل أن تحلنى من وعدى . وكل ماظفرت به هو أن تعدنى بالحضور فى الليلة التالية لتتعشى معى بنفس الشروط . وظللت سبعة ايام اعطيها كل يوم الف دوروس كى تتعشى معى ، وفى كل ليلة كنت انتظرها وقلبى فى حلقى . وانا قلق متوجس كأننى عاشق مبتدىء أو مصارع ثيران يبرز امام الجمهور للمرة الاولى . وفى كل ليلة كانت تلاعبنى وتعبث بى ، وتبدى لى من فنونها ودلالها ما يشعل جنونى حتى بت احبها حبا لا حد له . لم أحبب مثله احدا من قبل ولا من بعد . لم اعد افكر فى شىء سواها واهملت كل شىء وانا الرجل الوطنى الذى يحب بلاده . وكنا مجموعة صغيرة من الرجال استقر رأينا على الاطاحة بالطغيان الذى يسود وطننا . وكان يغيظنا أن جميع الوظائف الدسمة كانت لاصهار الطغاة واقاربهم . وكنا نؤدى الضرائب مثل عامة الشعب ، ولا يقام لنسبنا العريق

وزن ، وكنا نملك المال والرجال ، فأحكمنا تدبيرنا ، وتأهبنا لنضرب ضربتنا . وكان على فى تلك الفترة أن اعقد الاجتماعات وادبر السلاح والذخيرة ، وأوصل الاوامر الى رجالنا السريين . ولكنى كنت مجنونا بهذه المرأة فلم استطع ان احسن شيئا من تلك الامور . وكان من المفروض أن اسخط عليها لسخريتها منى ، انا الذى لم احرب فى حياتى الحرمان من شىء اشتهيته . ولم أصدق انها تتمنع على لتزيد رغبتى اشتعالا ، بل صدقت انها كانت صادقة عندما قالت لى انها لن تمنحنى نفسها الا اذا تأكدت من انها تحبنى ! وكانت تقول ان على أن اجعلها تحبنى . كنت اظنها ملكا كريما ، وكنت مستعدا للانتظار والصبر ، وانا واثق أن شدة حبى ستنتهى باشمال الجذوة فى قلبها . واخيرا ... اخيرا جدا قالت لى انها احبتنى . فكان انفعالى بذلك النبأ مروعا ، حتى خيل الى اننى سأخر صريعا ! كدت اجن من الفرح ! وكنت مستعدا أن انزل لها عن كل ما املكه فى الدنيا . كنت قمينا ان انتزع النجوم من السماء لتزين بها شعرها . كنت أريد أن افعل شيئا كى ابرهن لها على تجاوز حبى جميع الحدود . كنت اريد أن افعل المستحيل الذى لا يتصوره عقل ، كنت أريد أن اعطيها نفسى وروحى وشرفى وكل شىء . ولذلك وهى راقدة تلك الليلة بين ذراعى اخبرتها بمؤامرتنا وأشخاصنا الحقيقية وموعد التنفيذ . وشعرت بجسمها يتصلب من التيقظ والانتباه وهى تسمع ما اقول . ثم شعرت بكفها باردة جافة ، فاستولى على الشك وتذكرت على الفور ما أنذرنى به الورق من اجتماع الحب وامرأة سمراء والخطر والخيانة والموت . والتصقت بصدرى ، وقالت لى انها تفزع من سماع تلك الامور ، ثم سألتنى ان كان فلان وفلان من بين المتآمرين . واجبتها لانى اردت أن اتحقق من ظنى . وبدهاء لا حد له جعلت بين القبلات تستخلص منى التفاصيل . حتى اصبحت متأكدا كتأكدى من جلوسك امامى انها جاسوسة من رئيس الجمهورية . وانها مكلفة بالاستيلاء على لبى وهاهى ذى الان قد استخلصت منى جميع اسرارنا . لقد باتت حياتنا جميعا بين يديها وايقنت أنها ان غادرت

هذه الفرقة فسوف نقتل جميعا قبل مضى أربع وعشرين ساعة ، كنت أحبها . ولن تستطيع الكلمات ان تصور لك عذاب الرغبة التى كان يحترق بها فؤادى . وان حبا كذلك الحب لا لذة فيه . انه الم . الم رائع يسمو فوق كل لذة . انه ذلك القلق القدسى الذى يتحدث عنه القديسون عندما تستولى عليهم النشوة السماوية وادركت أنها ينفى الا تترك هذه الفرقة حية ، وخشيت ان تباطأت فى التنفيذ أن تخوننى شجاعتى .. وسمعتها تقول : « سأنام الان » فقلت لها : « نامى يايمامتى » فقالت ، وهى تقبلنى « يا حبة فؤادى ومهجتى وحياتى » وكانت هذه آخر كلمات نطقت بها اذ سرعان ما أغمضت عينيها وبعد قليل أدركت من تنفسها المنتظم الذى يعلو به صدرها الناضج كفاكهة البستان ويهبط لصق قلبى أنها نامت . كنت أحبها ولا اطيق ان تتألم . أجل انها جاسوسة ، ولكن قلبى أمرنى أن أجنبها هول ما استوجبته على نفسها . ومن العجيب اننى لم أشعر بالغضب لانها خانتنى ، ولا بالكراهية لوضاعة فعلتها . كل ما شعرت به أن روحى تسودها الظلمة الحالكة . وأوشكت أن أنفجر باكيا رحمة بها ، وأنا أجذب ذراعى برفق شديد من حول خصرها . ونهضت معتمدا على يدى ونظرت الى وجهها . ولكنها كانت جميلة جمالا مفرطا يعتصر القلب فأشحت بوجهى بعيدا وانا أغمد مديتى بكل قوتى فى نحرها البديع . ومن غير أن تستيقظ انتقلت سريعا من النوم الاصغر الى النوم **الاكبر** ..

وتوقف المكسيكى الامرد عن الكلام وعاد يحدق الى الاوراق الاربع المقلوبة وهو لايجسر على الكشف عن وجوهها :

ـ كان كل ذلك فى الورق . فلماذا لم انتفع بالنذير ؟ سوف لا اكشف عن هذه الاوراق . عليها اللعنة !

وبحركة عنيفة من يده أطاح بالاوراق الى الارض واضطجع فى مقعده ولف لنفسه سيجارة ، وهو يقول :

ـ ومع أننى مفكر حر ، الا اننى دفعت مالا كثيرا لاقامة الصلوات على روحها فى جميع الكنائس التى أعرفها .

ورجذب من سبجارته نفسا عميقا ثم هز كتفيه ، وقال :
ـ قال لى الكولونيل انك كاتب . ماذا تكتب ؟
ـ اكتب **قصصا** .
ـ قصصا بوليسية ؟
ـ كلا .
ـ ولم لا ؟ انها القصص الوحيدة التى اطالعها . ولو كنت كاتبا لا كتبت الا القصص البوليسية .
ـ ربما لانها شاقة جدا فى التاليف .

وغير اشندن مجرى الحديث واخذ يتكلم مع المكسيكى عن مهمتهما . فهما سيفترقان عند روما ليتوجه المكسيكى الى برنديزى ويتوجه اشندن الى نابولى . واراد اشندن ان يعطى الجنرال رقم حجرته فى فندق بلفاست الذى سينزل به كى يصعد الى الحجرة مباشرة عند اللزوم من غير ان يسأل عامل الاستقبال . ولكنه بعد تفكير لم يعطه رقم الحجرة بل جعله يكتب بخط يده عنوانه فى برنديزى على مظروف . ثم كتب اشندن رقم الحجرة فى قصاصة من الورق وارسل الخطاب بالبريد كى يتسلمه الجنرال من شباك البريد فى برنديزى .

وهز الجنرال كتفيه ، وقال :
ـ يالها من احتياطات اطفال ، فليس هناك ادنى مجازفة . وثق انه مهما كانت النتائج فلن يصيبك اذى .
ـ ليست هذه المهمة مما تعودت ان اقوم به . ولكنى انفذ تعليمات الكولونيل .
ـ ليكن . ولكنى اردت ان ازيد فى طمانينتك . ويجب أن تشعر انك بأمان من كل سوء كأنك تتنزه على شاطىء التايمز .

وأخيرا عندما افترق الاثنان فى روما ووجد اشندن نفسه وحده فى صالون القطار الذاهب الى نابولى زفر زفرة عميقة وشعر بالارتياح . وسره أن يتخلص من ذلك الثرثار القبيح الشكل الواسع الخيال . وذهب ذلك الرجل الى برنديزى ليقابل قسطنطين

اندريادى . وسرت الرجفة فى جسم اشندن ، فان صح ولو نصف ماحدثه به الجنرال عن نفسه ، فالجاسوس اليونانى فى عداد الاموات منذ الآن . وكان من العسير على اشندن أن يتصور ذلك اليونانى وهو يعبر بحر الادرياتيك غافلا عما ينتظره ، وحاملا تلك الوثائق السرية الخطيرة .

ولكنها الحرب . والبلهاء وحدهم هم الذين يخيل اليهم انهم يمكن أن تكسب بالوسائل الشريفة والمبادىء النظيفة وحدها .

الفصل السادس

نتيجة غير متوقعة

عندما وصل اشندن الى نابولى اتخذ لنفسه حجرة فى الفندق ، وكتب رقمها فوق قصاصة ورق وارسلها داخل المظروف الذى كتب عليه المكسيكى الامرد عنوانه . وبعد ذلك توجه الى القنصلية البريطانية لان الكولونيل كان قد رتب الامور بحيث يرسل اليه عن طريق القنصلية اية تعليمات تعن له . وتبين لاشندن أنهم يعلمون بقدومه ، وان كل شيء قد أعدت له أهبته على خير وجه . وعندئذ اخلى ذهنه من هذه المسائل واستعد كى يتمتع بمدة اقامته فى نابولى على أحسن وجه .

وفى الجنوب من ايطاليا كان الربيع قد أوغل فصارت الشمس شديدة الحرارة فى شوارع المدينة المزدحمة . وكان أشندن يعرف نابولى معرفة جيدة فكان ميدان القديس فرديناندو وميدان الاقتراع والكنيسة الجميلة القريبة من هناك تثير فى نفسه ذكريات حلوة .

وجعل يتمهل عند نواصى الشوارع ، وينظر الى الحارات الضيقة التى ترقى بالسائر فيها الجبل رقيا عنيفا ، وعلى جانبيها البيوت العالية وقد علقت فيها الثياب المغسولة لتجف . وجعل يتلكأ فى مشيته على الشاطىء وهو يحملق فى البحر الازرق وقد ارتسمت على افقه البعيد مدينة كابرى بألوان باهتة . واخيرا افضى به المسير الى قصر عتيق متهدم قضى فيه وهو طفل ساعات ممتعة . ثم ركب عربة يجرها حصان واحد هزيل وكر راجعا الى فندقه .

وظل اشندن يعيش على هذا النمط المتراخى الفارغ ثلاثة أيام . فكان لا يفعل شيئا منذ الصباح حتى الليل سوى التجول على غير هدى ، والنظر لا بعين السائح المتعجبة ، ولا بعين الكاتب المتفحصة ، بل بعين المتشرد الذى لايعنيه من هموم الدنيا شيء .

وتردد على المتحف ليرى روائع التماثيل والصور . والم طويلا بكنيسة القديسة كبارا لانه كان يعشق تلك الكنيسة بصفة خاصة .

وفى الصباح الرابع فرغ اشندن من حمامه واخذ يجفف جسمه ، واذا بالباب يفتح بسرعة ويندفع الى داخل الحجرة رجل . فصاح اشندن :

ـ ماذا تريد ؟

ـ على رسلك . الا تعرفنى ؟

ـ يا الهى ! انه المكسيكى ! ماذا فعلت بنفسك ؟

وكان المكسيكى قد استبدل بشعره المستعار شعرا اسود قصيرا فتغير منظره كل التغير وان ظل شكله على العموم غريبا ، ولكن بصورة مختلفة عن ذى قبل . وكان يرتدى بذلة رمادية عتيقة .

ـ سوف لا استطيع البقاء الا دقيقة واحدة . لانه يحلق ذقنه

فشعر اشندن بخديه يحمران فجأة وسأله :

ـ هل وجدته اذن ؟

ـ لم يكن ذلك عسيرا . لانه كان اليونانى الوحيد بين ركاب السفينة . وقد صعدت الى ظهرها عندما القت مراسيها وجعلت أسأل عن صديق ركبها من بيريه زعمت اسمه جورج ديوجينيدس . واظهرت دهشة شديدة لعدم حضوره وهكذا دخلت فى حديث مع اندريادى . وهو مسافر تحت اسم مستعار اذ سمى نفسه لومباردوس . وقد تبعته واقتفيت اثره بعد نزوله الى البر . فهل تدرى ماهو اول شىء فعله ؟ لقد ذهب الى دكان حلاق وحلق لحيته . فما رايك فى ذلك ؟

ـ لا شىء ، فأى شخص يستطيع أن يحلق لحيته .

ـ ليس هذا ما اعتقده . لقد اراد ان يغير سحنته . انه ماكر . وانا شديد الاعجاب بالالمان لانهم لا يتركون شيئا للصدف . وقد اصدروا اليه تعليمات مفصلة ، ولكنى سأحدثك عن هذا بعد قليل .

ـ ولكنك انت ايضا غيرت سحنتك .

ـ انه الشعر . اليس كذلك ؟

ـ ماكنت لاعرفك !

ـ يجب على الانسان ان يلتزم الحيطة دائما . لقد اصبحت أنا وهو صديقين حميمين . لانه كان قد قرر قضاء اليوم فى برنديزى وهو لا يستطيع التخاطب باللغة الايطالية . وكان مسرورا جدا لوجودى بجانبه . ثم بعد سهرة لطيفة فى برنديزى ركبنا القطار معا . ولما وصلنا الى نابولى جئت به الى هنا . الى هذا الفندق ، وهو يقول انه سيسافر الى روما غدا . ولكنى لن آدعه يغيب عن ناظرى . فأنا لا أود ان يروغ من يدى . وقد أبدى رغبة فى مشاهده ملاهى نابولى ومعالمها . فعرضت عليه ان اصحبه واريه كل مايستحق المشاهدة فيها .

ـ ولماذا لا يذهب الى روما اليوم ؟

ـ هذا جزء من القصة . فهو يدعى انه رجل اعمال يونانى جمع ثروة طائلة فى مدة الحرب . ويقول انه كان يملك باخرتين ساحليتين فباعهما . وهو الآن ينوى الذهاب الى باريس كى يتمتع ويلهو ، فقد ظل طول عمره يتلهف على باريس ، الى ان سنحت له الفرصة اخيرا . وهو رجل كتوم بذلت جهدى فى استدراجه للكلام ، فقلت له اننى اسبانى وانى ذهبت الى برنديزى كى انظم اتصالات سرية مع تركيا لتهريب معدات حربية . فأصغى لما أقول . وظهر عليه الاهتمام ، ولكنه لم يقل شيئا وبطبيعة الحال لم اجد من الحكمة ان ادفعه .

ـ والوثائق .

ـ يحملها معه .

ـ وكيف عرفت ذلك ؟

ـ انه ليس شديد الحرص على جيوبه . ولكنه بين حين وآخر يتحسس خاصرته . فالوثائق اما ان تكون فى حزام داخلى او فى بطانة سترته .

ـ ولكن لماذا بحق الشيطان اتيت به الى هذا الفندق بالذات ؟

ـ ظننت ان ذلك يكون افضل . لاننا قد نحتاج الى تفتيش أمتعته .

ـ وهل انت مقيم هنا ايضا ؟

ـ كلا . فلست أبله الى هذا الحد . لقد قلت له انني ذاهب الى روما بقطار الليل المتأخر ولهذا لا احتاج الى حجز غرفة . والآن يجب ان اذهب لانى وعدته ان اقابله خارج دكان الحلاق بعد ربع ساعة .

ـ وهو كذلك .

ـ واين استطيع ان أجدك الليلة اذا احتجت اليك ؟

فنظر اشندن الى المكسيكى الامرد برهة طويلة ثم قال :

ـ سأقضى المساء فى حجرتى .

ـ هذا عظيم . والآن هل لك أن تؤدى الى خدمة ؟

ـ ماهى ؟

ـ انظر هل فى الممر الخارجى احد .

ففتح اشندن الباب ونظر فى الدهليز فلم يجد أحدا . والواقع ان الفندق فى ذلك الموسم كان خاليا تقريبا من النزلاء فما اقل الاجانب فى نابولى فى زمن الحرب .

ـ كل شىء على مايرام .

فخرج المكسيكى الامرد يمشى فى اقدام وجراة منتصب القامة . واغلق اشندن الباب خلفه ثم حلق ذقنه وارتدى ملابسه ببطء . وكانت الشمس مشرقة كالعادة فى الميدان بصورة بهيجة . وكان كل شىء يقع عليه نظره يوحى بالسرور ، الا ان اشندن لم يشعر ببهجة ولا سرور فى ذلك اليوم ، لانه احس بعدم ارتياح داخلى . وذهب كعادته الى مقر القنصلية الانجليزية ليسألهم هل وردت باسمه رسائل برقية أو بالشفرة . ولم يجد شيئا ، فذهب الى مكاتب شركة كوك للسياحة ، ونظر فى مواعيد القطارات المسافرة الى روما ليلا . فاذا هناك قطار يقوم بعد منتصف الليل بقليل ، وقطار آخر يقوم فى الخامسة صباحا . وتمنى لو استطاع ركوب القطار الاول .

ولم يكن يدرى شيئا عن خطط المكسيكى . فلو انه كان حقا يريد الذهاب الى كوبا لكان من الافضل له أن يشق طريقه الى اسبانيا . ولما نظر اشندن الى مواعيد السفن ، وجد ان هناك سفينة ستبحر فى اليوم التالى من ميناء برشلونة .

وكان اشندن قد سئم نابولى . واخذ الشعاع الساطع باستمرار فى شوارعها يجهد عينيه . اما التراب فكان لا يطاق ، والضوضاء تكاد تصم اذنيه .

وتوجه اشندن بعد ذلك الى مقصف جاليريا وتناول كأسا من الشراب . وقضى فترة بعد الظهر فى دار للسينما . وبعد أن خرج من السينما ذهب مباشرة الى فندقه وقال لكاتب الاستقبال :

ـ ساسافر فى ساعة مبكرة جدا من صباح غد ، ولهذا افضل أن اسوى حساب اقامتى الآن .

وبعد تسوية الحساب اخذ اشندن حقيبته الى المحطة ولم يترك فى حجرته الا حقيبة كتب صغيرة فيها كتابان . وعاد الى الفندق فتناول الطعام وصعد الى حجرته لينتظر فيها المكسيكى الامرد .

ولم يستطع أن يخفى على نفسه انه كان عصبيا للغاية . وشرع يقرأ ولكن الكتاب كان شاقا فجرب الكتاب الآخر . ولكن انتباهه كان يخونه ، فيشرد كثيرا عن القراءة . وبدأ ينظر فى ساعته ، فاذا الوقت لم يزل مبكرا جدا ، فرجع الى الكتاب مرة اخرى ، وآلى على نفسه الا ينظر الى ساعته مرة اخرى ، الا بعد ان يتم قراءة ثلاثين صفحة بعناية تامة .

ومع انه كان يقرأ السطور بأمانة ودقة ولا يقفز منها شيئا الا انه لم يفقه شيئا كثيرا مما قرأه . وفى ختام الثلاثين صفحة نظر الى الساعة مرة اخرى فاذا بها لم تتجاوز العاشرة الا بدقائق قليلة . وبدأ يتساءل اين يكون المكسيكى الامرد الان ؟ وماذا يصنع ؟ وخشى أن يكون قد فشل فى مهمته .

انها مهمة فظيعة ولكن . لابد من الانتظار . وقام براسه ، ليفلق

النوافذ ويسدل الستائر . ثم اخذ يدخن السجائر بصورة متلاحقة الى أن صارت الساعة الحادية عشرة والربع . وخطر بباله خاطر جعل قلبه يدق دقا عنيفا . ودفعه الاستطلاع الى احصاء نبضه ، فادهشه ان يجده عاديا تماما . ومع أن الليلة كانت دافئة ، والحجرة ثقيلة الهواء ، الا أن يديه وقدميه كانتا باردة كالثلج .

وضاق بمخيلته الخصبة التي جعلت تجسم له اشكالا غريبة جدا ، وصورا لايريد أن يتمثلها بحال من الاحوال ! انه كاتب . وبحكم تلك المهنة كثيرا مافكر في جرائم القتل ، وطالع في ذلك الموضوع . والآن يراود ذهنه وصف لجريمة قتل جاء في كتاب الجريمة والعقاب للكاتب ديستويفسكي . وهو الآن لايريد ان يفكر في ذلك الموضوع ولكن الموضوع يفرض نفسه عليه فرضا ؟

وسقط الكتاب من فوق ركبته وهو يسأل نفسه :

ـ هل نابولي مدينة يمكن ان يقترف أحد فيها جريمة قتل ؟

ونظر اشندن مرة اخرى الى الساعة وقد شعر بتعب شديد . ثم كف عن محاولة القراءة لان ذهنه قد اضحى كصحيفة بيضاء .

وعندئذ انفتح الباب برفق شديد فقفز اشندن واقفا على قدميه وقد اقشعر بدنه . واذا بالمكسيكي الامرد ينتصب امامه . وسأله بأسما :

ـ هل افزعتك ؟ ظننت انك تفضل الا اطرق الباب .

ـ هل رآك أحد وانت تدخل ؟

ـ لقد فتح لي حارس الليل وكان نائما عندما دققت الجرس فلم ينظر الي . واني اسف لاني تأخرت . ولكن كان يجب أن أغير ثيابي .

وكان المكسيكي الامرد الآن في الثياب التي سافر بها ، وفوق رأسه شعره المستعار الاشقر اللون الطويل . وكان الفرق الذي أحدثه هذا التغيير غريبا حقا ، فبدا اضخم قامة واشد ازدهارا . بل ان شكل وجهه نفسه تغير فعيناه الآن لامعتان ، وهو يبدو في روح عالية جدا . ورمق اشندن بنظرة بريئة وقال :

ـ ما اشد شحوبك ايها الصديق ! لا اخالك متوتر الاعصاب ؟
ـ هل حصلت على الوثائق ؟
ـ كلا . لم يكن يحملها فى جيوبه . هذا كل ماكان معه .
ووضع فوق المنضدة مفكرة جيب سميكة وجواز سفر . فقال اشندن :
ـ لا اريدهما . خذهما .
فهز المكسيكى الامرد كتفيه واعاد « المخلفات » الى جيبه .
ـ وماذا كان فى حزامه ؟ قلت انه كان يتحسس خاصرته باستمرار .
ـ لم اجد الا نقودا . وقد قلبت صفحات مفكرته فوجدت بينها صور نساء . ولابد انه اودع الوثائق خزانة الفندق او دولاب حجرته قبل ان يخرج معى للسهرة .
ـ باللعنة ؟
ـ معى مفتاح حجرته . ومن المستحسن أن نذهب الآن ونفتش حقائبه تفتيشا دقيقا .
فشعر اشندن بغثيان فى معدته وتردد . فابتسم المكسيكى ابتسامة لا تخلو من رقة ، وقال كأنه يطمئن صبيا صغيرا :
ـ لا مجازفة فى الامر ايها الصديق . ولكن اذا كنت غير مستريح فأنا مستعد ان اذهب بمفردى .
ـ كلا . انا قادم معك .
ـ الكل نيام فى الفندق . وطبعا مستر اندريادى لن يعكر علينا صفونا . ويستحسن ان تخلع نعلك .
ولم يجب اشندن ولكنه لاحظ أن يديه ترتجفان قليلا وهو يفك رباط نعله ويخلعه . وحذا المكسيكى الامرد حذوه ، ثم قال :
ـ من المستحسن ان تتقدمنى انت ايها الصديق . در الى اليسار واتجه مباشرة فى الدهليز . والحجرة رقم ٣٨ .
وفتح اشندن الباب وخرج الى الدهليز الخافت الضوء . وكان

يضايقه أن يجد نفسه متوتر الاعصاب فى الوقت الذى يرى فيه رفيقه هادىء الاعصاب للغاية .

ولما وصلا الى الباب رقم ٣٨ أولج المكسيكى الامرد المفتاح فى الباب ودخل فأضاء النور . وتبعهُ أشندن واقفل الباب ثم لاحظ ان المصاريع الخشبية مقفلة . وقال المكسيكى بكل ارتياح :

ـ نحن الآن على مايرام وامامنا الوقت متسع كما تشاء .

ثم اخرج من جيبه حلقة من المفاتيح اخذ يجرب مفاتيحها فى حقيبة الملابس الى أن عثر على المفتاح المنشود . واخذ يخرج المحتويات من الحقيبة ، ثم قال بازدراء :

ـ ملابس من نوع رخيص ! مبدئى دائما انه من الارخص للانسان على طول المدى أن يشترى أحسن الانواع . لانه اما أن يكون الانسان سيدا شريفا أو هو ليس بسيد شريف . والملابس تدل على الشخص .

فسأله اشندن بغيظ :

ـ هل من الضرورى أن تتكلم ؟

فابتسم المكسيكى الامرد ، وقال :

ـ ريح الخطر تؤثر على الناس بأساليب مختلفة . فهى مثلا تثير حيويتى فقط . اما انت فتتلف مزاجك ايها الصديق !

ـ وواضح أننى مرتاع أما انت فلا !

ـ مسألة أعصاب ليس الا .

واخذ يتحسس كل ثوب بسرعة ودقة فلم يجد أوراقا من اى نوع . فأخرج مديته وشق بطانة الحقيبة الداخلية فلم يجد شيئا بداخلها .

ـ الوثائق ليست هنا . فلابد انها مخبأة فى الحجرة .

ـ أواثق انت انه لم يودعها فى مكان ما ؟

ـ مثل ؟

ـ احدى القنصليات مثلا .

ـ انه لم يغب عن نظرى لحظة واحدة الا وهو فى محل الحلاقة .

وفتح المكسيكى الامرد الادراج والدولاب . اما الارض فكانت

عادية ، ثم فتش بين الحشايا والوسائد . وكانت عيناه السوداوان تنتقلان فى وميض ثاقب بين أرجاء الحجرة بحثا عن مخبأ . وشعر اشندن ان لاشيء يفيب عن تلك النظرة الفاحصة . فقال :

ـ تركها فى خزانة الفندق امانة .

ـ وهذا ايضا كنت خليقا أن أعلمه . ثم انه ماكان ليجسر على تلك المجازفة . انها ليست هنا وهذا ما أعجز عن فهمه .

ـ هيا بنا نخرج .

ـ دقيقة واحدة ..

ثم ركع المكسيكى على ركبتيه واخذ يطوى الملابس بسرعة واناقة واقفل الحقيبة ثم نهض واقفا واطفأ النور . وفتح الباب بتؤدة ونظر فى الدهليز ثم أومأ الى اشندن وتسلل خارجا . فلما تبعه اشندن اقفل المكسيكى الباب بالمفتاح وسار مع اشندن الى حجرته . وبعد أن أغلق اشندن الحجرة بالمزلاج جفف يديه وجبهته من العرق الغزير ، وصاح :

ـ الحمد لله . خرجنا من هناك سالمين .

فابتسم المكسيكى برفق وقال :

ـ الحق انه لم يكن هناك ادنى خطر . ولكن ماذا نصنع الآن ؟ سيغضب الكولونيل لاننا لم نعثر على الاوراق .

ـ سأستقل قطار الخامسة صباحا الى روما . ومن هناك سابرق الى الكولونيل فى طلب التعليمات .

ـ وهو كذلك . سآتى معك .

ـ أعتقد أنه من الافضل لك ان تغادر هذه البلاد بأسرع مايمكن . وغدا ستبحر من هنا سفينة الى برشلونة . فلماذا لا تستقلها واذا نزم الامر ذهبت لمقابلتك هناك ؟

فابتسم المكسيكى الامرد ، وقال :

ـ أراك متلهفا على الخلاص منى . ولكنى لن اخيب رغبة املتها خبرتك فى هذه الامور . وسأسافر الى برشلونة ولدى تأشيرة دخول اسبانية .

ونظر اشندن الى ساعته وكانت قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل بقليل فأمامه ثلاث ساعات من الانتظار . ورأى زميله يلف سيجارة بكل راحة بال ثم قال لاشندن :

ـ مارايك فى وجبة عشاء متأخرة الآن ؟ فانى اشعر بجوع شديد ، كجوع الضوارى .

وكانت كلمة الطعام كافية لشعور اشندن بغثيان . ولكن حلقه كان جافا وبه رغبة فى الشرب . ولم تكن به رغبة فى الخروج مع المكسيكى الامرد . وفى الوقت نفسه لم تكن لديه رغبة فى البقاء بذلك الفندق وحده ، فسأل المكسيكى :

ـ أين يستطيع الانسان أن يذهب فى هذه الساعة ؟

ـ تعال معى وسأجد مكانا مناسبا .

فوضع اشندن قبعته على رأسه وحمل حقيبة الكتب ونزلا على اطراف الاصابع حتى لا يوقظا حارس الليل النائم فوق مكتب الاستقبال . ولكن عين اشندن لمحت فى الكوة التى تحمل رقم حجرته خطابا . فأخذه ووجد عليه عنوانه فدسه فى جيبه ، وخرجا من باب الفندق بحذر ثم أغلقاه ومشيا بسرعة نحو مائة خطوة . وتحت ضوء مصباح فى الشارع فض اشندن الخطاب فاذا به من القنصلية :

ـ نتشرف بارسال هذه البرقية الشفرية التى وردت الليلة بصفة عاجلة .

ولابد أن الخطاب وصل الى الفندق قبل منتصف الليل . ولكن كسل الطليان المعروف جعل الموظف يودعه الكوة ولا يلتفت الى كلمة عاجل جدا المكتوبة على المظروف . رغم ان رسولا خاصا من القنصلية حمله الى الفندق ..

وفض اشندن البرقية الشفرية . ولما كانت عملية حل الشفرة تستغرق وقتا فقد دس البرقية فى جيبه الى أن ينفرد بنفسه .

وكان المكسيكى الامرد يسير كمن يعرف الطريق تماما فى هذه الشوارع المقفرة واشندن يسير بجواره . واخيرا وصلا الى حانة

فى زقاق مغلق تنبعث منها ضجة ورائحة نفاذة . فدخل المكسيكى وهو يقول :

ـ انه ليس فندق ريتس بطبيعة الحال . ولكن فى هذه الساعة من الليل لايوجد الا مثل هذه الحانة . وبين السكارى الفقراء وفتيات الليل القبيحات جلس الاثنان . وطلب الجنرال طبقين من الاساجتى وزجاجة من نبيذ كابرى . وما أن جاء الساقى بالزجاجة حتى شرب نصفها جرعة واحدة . وعزفت الموسيقى ، فقام بعض السكارى ليرقصوا مترنحين . ونهض الجنرال ايضا وقال لاشندن :

ـ الا ترقص ؟ سأرقص مع احدى اولئك الفتيات .

وانتقى فتاة ذات عينين لامعتين واسنان ناصعة فراقصها ولاحظ أشندن أنه يرقص ببراعة . وانه يتحدث الى المراة وان كلماته جعلتها تبتسم ثم تضحك . وظهرت آيات المرح على ذلك الحديث الى نهاية الرقصة ، وعندئذ عاد الى اشندن واخذ يحثه على الرقص كى يشعر بالبهجة ولا يطول عليه وقت الانتظار .

وصدحت الموسيقى مرة اخرى . فنظر الى الفتاة التى كان يرافصها واشار بأصبعه فقفزت قادمة نحوه . فكان يختطفها من فوق الارض وهو يدور معها ثم اخذ يوزع النكات على الجالسين والراقصين بلغة ايطالية طلقة ، فارتفعت الكلفة بينه وبين الجميع .

وفى وسط الرقصة راى الساقى يحمل طبقى مكرونة فترك الفتاة بلا مقدمات واسرع الى الطعام . ولما اكد له اشندن انه لا يريد ان يأكل شدد عليه . فأكل أشندن مضغة واذا به يكتشف انه جائع جدا فأكل بقية الطبق . أما الجنرال فالتهم طبقه التهاما ثم طلب زجاجة اخرى من النبيذ . ثم مد ذراعه ليربت على ذراع اشندن . فصرخ اشندن :

ـ ماهذا الذى يلطخ كم معطفك ؟

فألقى المكسيكى نظرة الى كمه وقال :

ـ هذا ؟ لا شىء . نقطة دم . حدث لى حادث صغير وجرحت

نفسي ، وسكت اشندن ثم تطلع الى الساعة المعلقة فوق باب الحانة .

ـ اتفكر فى قطارك ؟ دعنى استمتع برقصة اخرى ثم اصحبك الى المحطة .

ونهض المكسيكى بثقته التى لاحد لها وراقص اقرب امراة الى يده . واخذ اشندن يتابعه بنظراته وهو متعجب ومعجب برشاقته الفائقة ومرحه ولولا انه ينبغى أن يصفى معه حسابا معينا على حسب التعليمات قبل سفره لتركه يرقص حتى الصباح واتجه الى المحطة بمفرده .

وكانت التعليمات أن يسلم المكسيكى مبلغا معينا فى مقابل وثائق معينة . والوثائق لم يعثر لها على اثر . وهو لا يدرى ماالعمل الآن . وقطع عليه حبل افكاره تلويح المكسيكى الامرد له وهو يمر بقربه .

ـ سآتى بمجرد توقف الموسيقى عن العزف . ادفع الحساب حتى نكون على تمام الاستعداد .

وتمنى اشندن لو أنه استطاع النفاذ الى عقل هذا الرجل العجيب . فهو لا يدرى سر تركيبه الخاص .

وتوقفت الموسيقى واقبل المكسيكى وهو يجفف بمنديله المعطر العرق عن جبينه . فساله اشندن :

ـ هل استمتعت بوقتك ياجنرال ؟

ـ انا دائما استمتع بوقتى . نساء قبيحات . نفايات بيضاء ولكن ماذا يعنينى ؟ أنا احب أن اشعر بجسد امراة بين ذراعى وان ارى عينيها تتكسران ، وشفتيها تنفرجان ، لان جاذبيتى اذابت نخاع عظامها كما يذوب الزبد فى حرارة الشمس . نفايات بيضاء . ولكنها نماذج من الانوثة ، وانا لابد لى من اناث ...

ومشى الاثنان فى طريق المحطة . وكانت ليلة صافية ، الريح فيها ساكنة ، والصمت يسير معهما كانه شبح ميت ، وقرب المحطة كانت فى البيوت بقية من حياة . وسرت فى الليل رجفة مقلقة تنذر

بقرب طلوع الفجـر . وسرعان ما ضـمهما مبنى المحطة . وكانت الاستراحة خالية فجلسا فى ركن منها . وكانت الساعة الرابعـة . وأمام أشندن ساعة كاملة فأخرج البرقية وأخذ يحل رموز الشـفرة المعقدة . وعندما فرغ من ذلك أخيرا قراها جملة واحدة . فاذا بها كالآتى :

ـ قسطنطين اندريادى عاقة المرض عن ركوب السفينة من بيريه عد حالا الى جنيف وانتظر التعليمات .

وصرخ أشندن بصوت مكتوم :

ـ أيها الاحمق ! لقد قتلت رجلا لا جريرة له !

الفصل السابع

رحلة إلى باريس

وكان من عادة اشندن ان يؤكد دواما انه لا يعرف السأم . ومن آرائه ان من يسأم من الناس انما هم الذين ليست فى نفوسهم مصادر للمعرفة أو الاهتمام أو الاستمتاع . والاغبياء هم الذين كل اعتمادهم فى التسلية واستمتاع على العالم الخارجى .

ولم تكن لدى اشندن أوهام عن نفسه ، وما اوتيه من نجاح فى عالم الادب لم يحدث براسه دوارا . فكان يفرق بدقة بين الشهرة ذات الجذور والاساس وبين الشهرة السهلة التى تواتى مؤلف رواية ناجحة او مسرحية موفقة . وهذا النوع الاخير من الشهرة لم يكن اشندن يكترث له الا بمقدار مايفىء عليه من امتيازات او منافع ملموسة . فهو مستعد تمام الاستعداد ان يستفيد من اسمه الذائع كى يحصل على قمرة فوق سطح السفينة افضل من القمرة التى دفع اجرها . واذا اتفق ان ضابط الجمرك اجاز حقائب اشندن من غير أن يفتحها لانه قرأ له قصصه القصيرة ، فهو حرى أن يقر بان ممارسة الادب لا تخلو من عائد نافع . ولكنه كان يتنهد وهو يحس بضيق صدره حينما يلح عليه شباب طلاب الفنون التمثيلية كى يناقشوا معه حرفية التاليف المسرحى . وكذلك حينما تهمس المجائز القبيحات من النساء فى اذنه باعجابهن الشديد بكتبه . وكان يتمنى فى اعماق نفسه لو مات .

وكان اشندن يعتقد فى نفسه الذكاء . فكان من السخف مع هذا الاعتقاد ان يسلم نفسه للسأم .. والواقع انه كانت لديه القدرة على الحديث الى اشخاص لهم شهرة مستفيضة بالغباء وثقل الظل ، حتى ان الناس يهربون من مجالستهم كانهم من الدائنين . فمثل هؤلاء الناس هم المادة الخام التى يصوغ منها شخصياته الروائية . ولديه

الآن كل شيء يطمح اليه الرجل العاقل كى يجد التسلية المعقولة . فتحت تصرفه غرف لطيفة فى فندق من أجود فنادق جنيف ، وجنيف من الطف المدن التى تطيب فيها الاقامة فى اوروبا قاطبة .

ومن عادة اشندن أن يستأجر زورقا للتجديف فوق مياه البحيرة أو حصانا يركبه للسير البطيء . ففى هذه المدينة الانيقة لا توجد مساحات من الارض مكسوة بالعشب يستطيع المرء فيها أن يجرى بجواد راكض . وفى احيان اخرى كان يتجول راجلا فى الشوارع القديمة ، ويحاول أن ينفذ ، وهو بين تلك البيوت الحجرية الرمادية الهادئة الوقور ، الى روح العصر الغابر الذى بنيت فيه . وكان يقرأ ايضا فى تلك المدينة مرة بعد اخرى اعترافات روسو الرائعة . وحاول عبثا اكثر من مرة أن يتم قراءة روايته المشهورة . الويز الجديدة . وبين حين وحين كان يكتب صفحات متفرقة . أما الناس فكان يختلط بهم كثيرا . فمهنته الراهنة لا تخول له التعرف الى عدد كبير منهم . ولكنه على صلات سطحية بعدد قليل من نزلاء الفندق فى الحدود التى تسمح له بتبادل الحديث السطحى العابر ، كى لايشعر بالعزلة التامة. وهكذا كانت حياته حافلة بما فيه الكفاية ، غير خالية من التنويم ، وفى الاوقات التى لا يجد فيها ما يفعله كان يلوذ بافكاره وخواطره الخاصة فيجد فى ذلك مسلاة غير قليلة .

فمن العبث اذن ان يظن ظان أن اشندن كان فريسة للسأم والملل . فكان يكفيه مثلا وهو يركض بجواده حول مدينة جنيف أن يتذكر سحنة رؤسائه فى ادارة المخابرات السرية ، ويتسلى على حسابهم ، ولو على سبيل الانتقام . فمن العدل أن نعترف أن اولئك الرؤساء يستمتعون بتحريك جهاز المخابرة الضخم ، ويشاهدون النتائج المثيرة ، ويطلعون على التحركات والتيارات الخفية التى تشبه لعبة شطرنج هائلة . فى حين يشقى المرءوسون من الجواسيس والعملاء امثال اشندن بتنفيذ خطوات جزئية لاتاح لهم فى الغالب فهم شيء عن اسبابها ، او الاطلاع على شيء من كنهها . وكانهم آلات صماء تتحرك بغير شعور او ادراك او دمى خشبية

ينفذ بها اغراضه . مما يجعل الغيظ يترسب فى الاعماق عن غير قصد .

والحقيقة أن نظام أشندن اليومى فى العمل كان رتيبا متشابها كحياة مستخدمى المكاتب . فكان يقابل الجواسيس الذين يعملون تحت اشرافه فى فترات مرسومة بدقة ويسلمهم رواتبهم .

وعندما يتفق له ان يقع على عنصر صالح للجاسوسية كان يستخدمه ويصدر اليه تعليماته ، ثم يبعث به الى المانيا ، وينتظر مايمكن أن يرسله من المعلومات ، فيتولى توصيلها الى القيادة العامة . وكان يعبر الحدود مرة واحدة كل اسبوع ليتباحث مع زميله مدير الجاسوسية فى فرنسا ، ويتسلم منه تعليمات لندن .

اما سوق جنيف فكان يذهب اليه يوميا ، ليغطى ذهابه فى يوم السوق الاسبوعى كى يقابل بائعة الزبد ويتسلم منها اية رسالة يمكن أن تأتيه بها عبر الحدود . وكان دائما مفتوح العينين والاذنين لكل همسة وكل حركة . ويكتب تقريرات طويلة كان يظن ان احدا لا يقرؤها فى القيادة كما هو معهود فى المكاتب الحكومية ، الى أن جاءه ذات يوم توبيخ على بعض عبارات هازلة وردت فى غضون أحد تقاريره ..

ومن بين اسباب التسلية التى حاول أن يرفه بها عن نفسه ، وتخفف من رتابة عمله المتشابه فى جنيف ، أن فكر ذات يوم فى مفازلة البارونة فون هيجنز .. فهو الآن واثق من أنها جاسوسة فى خدمة الحكومة النمساوية . ولذا كان يتوقع أن يسفر الصراع الماكر بينهما عن لذة مثيرة . فمن المسلى ولاشك أن يلتحم ذكاؤه بذكائها فى مناورة . وكان على يقين من أنها ستحرص على نصب الفخاخ له باستمرار ، ومما لاشك فيه أن روغانه من تلك الفخاخ سيكون له نشاطا ذهنيا ينفض الصدأ عن عقله . ووجد لديها استعدادا لتلك اللعبة الشائقة . فكلما ارسل اليها باقة من الازهار بعثت اليه بكلمة رقيقة .

واقدم بعد ذلك على دعوتها الى نزهة فى قارب بالمجاديف على متن

البحيرة ، فلبت طلبه واسترخت فى القارب الصغير وادلت ذراعها البيضاء العارية الطويلة المشوقة بحيث انغمست أناملها البضة فى الماء واخذت تحدثه عن الحب حديثا لمحت فيه تلميحا الى قلبها المحطم . وتناولا العشاء بعد ذلك معا ، ثم توجها لمشاهدة تمثيل باللغة الفرنسية نثرا لرواية روميو وجولييت ..

ولم يكن أشندن قد استقر رأيه بعد على المدى الذى يبلغه فى علاقته بهذه البارونة عندما جاءته رسالة ذات لهجة حادة من الكولونيل ، يستفسره عن هدفه من تلك اللعبة ، لان المعلومات قد وصلت الى الرئاسة بأن أشندن يكثر من الاختلاط بامراة تدعو نفسها البارونة هيجنز وهى فى الواقع جاسوسة لدول المحور . وانه من غير المرغوب فيه أن تكون لاشندن بها اية علاقات سوى علاقات المجاملة فى حدها الادنى !

وهز اشندن كتفيه استخفافا وقد ادرك ان الكولونيل لا يحسن الظن به ، كما يحسن هو الظن بنفسه . ولكنه ايقن بعد ذلك من صدق الظن الذى ذهب اليه من قبل من وجود شخص ما فى مدينة جنيف مكلف من قبل الكولونيل بمراقبة حركاته وسكناته ورفع التقارير عنه الى رؤسائه ، للتأكد من انه لا يهمل فى اداء واجباته ولا يتورط فى المزالق . وكان هذا مما زاد فى تسلية أشندن ، كأنه مشترك فى لعبة استخفاء ضخمة . وزاد اعجابه بالكولونيل الداهية الذى لا يترك شيئا للمصادفات ولا يثق بأى شخص ثقة كاملة . ان الناس فى نظر هذا الكولونيل ادوات يستخدمها فى أغراضه ، من غير أن يحاول تحديد قيمة لهذه الاداة أو تلك .

وجعل اشندن يستعرض فى مخيلته الاشخاص المحيطين به عسى أن يعرف على وجه التحديد من هو ذلك الشخص الذى وشى به عند الكولونيل . ورجح عنده أن هذا الشخص أحد سقاة الفندق وخدمه فهو يعرف ان الكولونيل ميالا لاستخدام خدم الفنادق فى التجسس . ولا عجب ! فطبيعة عملهم تسمح لهم برؤية الكثير وسماع الكثير بحكم وجودهم فى مواطن التقاء النزلاء والغرباء .

ثم خطر له بعد ذلك أنه ليس من المستبعد أن يكون الكولونيل قد حصل على تلك المعلومات من البارونة نفسها ، فليس من المستبعد بعد كل شيء أن تكونَ في خدمة احدى دول الحلفاء . فالكثيرون يأكلون على الماندتين في زمن الحرب .

وعلى كل حال فقد استمر اشندن في علاقة المجاملة المهذبة تجاه البارونة . ولكنه كف عن التودد اليها .

وذات يوم عاد اشندن من نزهته على ظهر جواده ، ودخل الفندق فوجد لدى موظف الاستقبال برقية هذا نصها :

« العمة ماجي مريضة ومقيمة بفندق لوتي بباريس . أرجوك اذا امكن ان تذهب لزيارتها ـ ريموند » .

وكان اسم ريموند من الاسماء المستعارة التي يؤثر الكولونيل استخدامها . ولما كان اشندن ليست له عمة بهذا الاسم ، فقد أدرك ان الكولونيل يأمره بالتوجه الى هذا الفندق في باريس . وكان يعرف ان الكولونيل حين يكون منشرح الصدر يستخدم اساليب الروايات البوليسية الرخيصة . ومعنى ان الكولونيل في حالة نفسية جيدة أنه متأهب لتسديد ضربة جديدة . اما بعد اتمام الضربة فانه يكون في حالة نفسية سيئة تترك آثارها على تصرفاته مع مرءوسيه .

ووضع اشندن البرقية باهمال مقصود فوق المكتب ثم سأل موظف الاستقبال عن موعد القطار السريع المتجه الى باريس . ثم نظر الى ساعته ليرى هل أمامه متسع من الوقت للتوجه الى القنصلية قبل مواعيد الاغلاق كي يحصل على تأشيرة الدخول .

وبينما هو يصعد السلم ليحضر جواز سفره من حجرته قال له عامل الاستقبال :

ـ لقد ترك السيد برقيته .

ـ ما اغباني !

وهكذا صار من المؤكد لدى اشندن أنه في حالة تساؤل البارونة عن سبب سفره المفاجيء الى باريس قد تعلم أن مرض قريبته هو السبب . ومن المستحسن في زمن الحرب أن يعتبر الانسان كل من حوله جواسيس ، ولا سيما موظفو الفنادق .

وكان معروفا فى القنصلية الفرنسية ، فلم يستغرق وقتا طويلا فى الحصول على تاشيرة الدخول . ثم طلب من عامل الاستقبال فى الفندق ان يحصل له على تذكرة فى القطار السريع ، وصعد الى حجرته ليستحم ويبدل ثيابه وهو مسرور بالذهاب الى باريس ، ولانه يحب تلك الرحلة فى القطار السريع مابين جنيف والعاصمة الفرنسية. ثم انه من الاشخاص الذين يستطيعون النوم فى عربات النوم بالقطارات . واذا ايقظه الوقوف المفاجىء فى احدى المحطات يلذ له أن يدخن سيجارة فى الظلام مستطيبا تلك الوحدة . واذا استيقظ على ضجة القطار أصغى لصوت العجلات ، وهدير البخار ، وشرد بخواطره وافكاره ، وخيل اليه ان القطار فى جوف الليل شهاب يشق أجواز الفضاء الى مصير مجهول .

وعندما وصل اشندن الى باريس كان الجو باردا والمطر يسقط رذاذا ، وشعر بحاجته الى حلاقة ذقنه ثم الاستحمام وتبديل ثيابه . ولكنه آثر أن يتصل من المحطة تليفونيا بالكولونيل ويساله :

ـ كيف صحة العمة ماجى الآن ؟

واجابه صوت الكولونيل والضحك يعترض كلماته :

ـ يسرنى أن ارى عواطفك نحوها تدفعك الى الحضور بغير ابطاء فحالتها فى تأخر شديد . وان كنت واثقا انه سوف يسرها ويفيدها صحيا ان تراك .

ـ ومتى تسمح لها ظروفها باستقبالى فيما تظن ؟

فضحك الكولونيل وقال :

ـ اعتقد أنها ستكون حريصة على تنسيق زينتها قبل حضورك . فهى كما تعلم متعلقة دائما بمظهرها . فليكن اذن الموعد فى منتصف الحادية عشرة . وبعد ان تجاذبها أطراف الحديث سيكون فى وسعنا أن نخرج لتناول الغداء معا فى مكان ما .

ـ وهو كذلك ، سأحضر الى فندق لوتى فى العاشرة والدقيقة الثلاثين .

وعندما وصل اشندن الى الفندق وقد صار نظيفا أنيقا مجدد

النشاط ، استقبله جندى المراسلة الذى يلازم الكولونيل فى البهو السفلى ، ثم صحبه الى جناح الكولونيل الخاص ، ففتح الباب وادخل اشندن . واذا بالكولونيل واقف وظهره مستند الى كتلة من الخشب مشتعلة فى المدفأة ، يملى على سكرتيره . فقال :

ـ اجلس .

ثم واصل الاملاء . وكانت حجرة الجلوس حسنة الاثاث . وهناك مجموعة من الورد فى زهرية ، مما يوحى بان التى رتبتها بهذا الذوق امراة مترفة . وفوق منضدة كبيرة كومة ضخمة من الاوراق . وكان الكولونيل يبدو اكبر سنا من آخر مرة رآه فيها اشندن . وكان وجهه النحيل الاصفر احفل بالغضون والتجاعيد ، وشعره اشد بالشيب اشتعالا . وكانت وطأة العمل بادية عليه فهو لم يكن يرحم نفسه او يدخر شيئا من طاقته . يستيقظ فى السابعة صباحا كل يوم ويظل يعمل فى دأب الى ساعة متأخرة من الليل .

واخيرا قال الكولونيل :

ـ هذا يكفى . وخذ معك كل هذه الاوراق واكتبها على الآلة . فانى اريد ان اوقعها قبل ان اخرج للغداء .

وقال للمراسلة انه لا يريد ان يزعجه احد فى خلوته باشندن .

وكان السكرتير ملازما ثانيا فى الحلقة الثالثة من عمره . وكان واضحا انه مدنى مجند بصفة مؤقتة . وجمع السكرتير كمية الاوراق وغادر الحجرة . وخرج وراءه المراسلة . ولما صار اشندن والكولونيل وحدهما التفت الكولونيل اليه وقال :

ـ هل استمتعت برحلة طيبة ؟

ـ نعم ياسيدى .

فاشار الكولونيل الى حجرة الجلوس من حوله وقال :

ـ وما رايك فى هذا النظام ؟ لا بأس به . اليس كذلك ؟ وانا لارى مانعا يمنع الناس من محاولة التخفيف من متاعب الحرب كلما امكنهم ذلك .

وكان الكولونيل اثناء هذه الثرثرة يحدج اشندن تحديجا قويا .

وكانت النظرة من عينيه الباهتتين توحيان اليك انه ينظر الى عقلك عاريا ويعجبه ما يدور فيه ! ومن خصائص الكولونيل انه فى بعض الاحيان لا يكتم اعتقاده بأن جميع افراد الجنس البشرى اما بلهاء واما أوغاد ... وكانت هذه احدى العقبات الكثيرة التى تمنع الالفة بينه وبين الناس وتجعله لا يثق بهم . لانه فى الغالب يفضل أن يسوى حسابه على اعتبار ان الناس جميعا اوغاد ، فذلك ادعى للحرص وعدم خيبة الامل .

والكولونيل جندى محترف قضى معظم مدة خدمته فى الهند والمستعمرات . وعند اندلاع نيران الحرب كان معسكرا فى جمايكا . وتذكره واحد ممن تعاملوا معه من رجال وزارة الحربية فاختاره لادارة المخابرات . وكانت كفاءته الفائقة سببا فى سرعة ترقيه الى منصبه الخطير . فهو والحق يقال ذو طاقة ضخمة على العمل وموهبة فى التنظيم مع شجاعة وعزم وجمود عاطفة .

ولعله خال من مواطن الضعف سوى موطن واحد وهو انه لم لايخالط طول حياته من النساء على وجه الخصوص احدا من ذوات الاقدار الاجتماعية المعتبرة . فكل من عرفهن طول حياته من النساء هن زوجات زملائه الضباط وزوجات موظفى الحكومة وزوجات رجال اعمال . فلما جاء الى لندن فى بداية الحرب واصبح فى عمله الجديد على صلة بنساء ممتازات لامعات حسناوات ، بهره ذلك فشعر بالخجل والضآلة نحوهن . ولكنه استمر على صلاته الاجتماعية بهن وصار من المولعين بالنساء . وكان اشندن يعرف عنه اكثر مما يخيل اليه . ولذا كان لزهرية الورد الاحمر عنده مغزى واضح غير الذى حاول الكولونيل ايهامه به من تخفيف وطأة الحرب .

وكان اشندن يعلم تمام العلم ان الكولونيل لم يرسل اليه ليتحدث عن الجو والمحصولات . وتساءل بينه وبين نفسه متى سيدخل الكولونيل فى الموضوع . ولم يطل تساؤله :

ـ لقد ابليت بلاء حسنا فى جنيف .

ـ يسرنى انك ترى هذا الراى ياسيدى .

وفجأة بدا الكولونيل قاسيا حازما . لقد نفض يده من حديث المجاملة .

ـ عندى لك عمل يا اشندن .

ولم يجب اشندن ولكن قلبه اختلج بالسرور . واستطرد الكولونيل :

ـ هل سمعت عن شندرالال من قبل ؟

ـ كلا ياسيدى

وظهر نفاذ الصبر على جبين الكولونيل المقطب . لانه كان يتوقع من مرءوسيه أن يعرفوا كل شيء يرغب فى أن يعرفوه .

ـ واين كنت تعيش يارجل طيلة هذه السنين ؟

ـ فى رقم ٣٦ شارع شسترفيلد بحى ماى فير ؟

فلاح شبح ابتسامة على وجه الكولونيل الاصفر . فقد كان يعجبه مثل ذلك الرد الساخر . واتجه الى المنضدة الكبيرة ، وفتح حقيبة أوراق كانت فوقها فاستخرج منها صورة فوتوغرافية قدمها الى اشندن :

ـ هذا هو شندرالال .

وبالنسبة لاشندن الذى لم يألف رؤية الوجوه الشرقية كانت الصورة تبدو كأية صورة لاحد راجات الهند الذين يحضرون فى زيارات مرسمية الى لندن وتنشر صورهم فى المجلات المصورة . فالوجه بدين ، والبنية مفرطحة والشفتان ممتلئتان ، والانف كبير ، والشعر أسود غزير مستقيم . وعيناه المفرطحتان فى السعة اشبه فى الصورة بعينى البقرة . وهو يبدو على غير سجيته فى الثياب الاوروبية .

واعطى الكولونيل لاشندن صورة اخرى ، وهو يقول :

ـ وهذا هو فى ثيابه القومية .

وكانت الصورة الاخرى تمثله بطوله . اما الاولى فلا يظهر فيها الا الراس والكتفان . ويبدو انها كانت مصورة منذ بضع سنوات فهو فيها انحف حتى أن عينيه الكبيرتين الجادتين جدا كادتا تبتلعان وجهه . والمصور الذى صنع الرسم هندى من كلكتا جعل وراء ظهر

شندرالال نخلة نابتة على شاطىء البحر . ووقف شندرالال ويده متكئة على أصيص به نبات المطاط . ومع هذا كان يبدو فى عمامته الكبيرة وازاره الابيض الطويل رجلا مهيبا .

وسأل الكولونيل :

ـ ما رايك فيه ؟

ـ انه رجل لا يخلو من شخصية . فيه قوة ومضاء .

ـ هاك الملف الخاص به . اقراه جيدا .

وقدم الكولونيل الى أشندن صفحتين مكتوبتين على الالة الكاتبة فانصرف الى قراءتهما ووضع الكولونيل نظارته فوق عينيه ، وشرع يتصفح الخطابات التى تنتظر توقيعه .

وتصفح اشندن التقرير بسرعة ثم أعاد تلاوته بمزيد من التمعن . ويبدو أن شندرالال كان مهيجا من اخطر المهيجين . وحرفته الاصلية المحاماة ، بيد انه احترف السياسة وصار من اعدى أعداء الحكم الانجليزى فى الهند . وممن يؤمنون بضرورة استخدام القوة المسلحة وفى كثير من حوادث الشغب التى أهدرت فيها الدماء كان لشندرالال اصبع كبير . وقبض عليه مرة وحوكم وادين وقضى فى السجن سنتين . فلما كانت بداية الحرب ، وكان قد اطلق سراحه ، انتهز الفرصة وبدأ يستعد للتمرد المسلح الصريح . ومنذ ذلك الوقت وهو فى قلب كل مؤامرة لاحراج الحكم الانجليزى فى الهند ، حتى يحول ذلك بين انجلترا ونقل القوات من هناك الى ميدان الحرب فى أوروبا . وكان الالمان يغدقون عليه مبالغ طائلة من المال ، مما يتيح له الانفاق على تلك المؤامرات والاضطرابات الواسعة المدى . وقد ثبت اشتراكه وتدبيره لاكثر من عملية نسف بالقنابل ، ازهقت فيها ارواح الابرياء من المارة واصيبت الممتلكات بأضرار . وكان لها أثر كبير فى هز اعصاب الراى العام وافساد الروح المعنوية . واستطاع شندرالال أن يفلت من جميع المحاولات التى بذلت لالقاء القبض عليه . وكان نشاطه هائلا ، يكثر من التنقل هنا وهناك ومع هذا عجزت الشرطة عن ايقاعه فى شباكهم وهو عندما يؤلب الجماهير فى مدينة ما ، فانه لا يلبث أن يغادرها بعد ان يفرغ من مهمته بها .

واخيرا رصدت جائزة كبرى للارشاد اليه ففر من الهند الى امريكا. ومن هناك انتقل الى السويد ثم الى برلين . وفى برلين جعل همه بذر بذور الشقاق بين القوات الهندية التى جيء بها الى اوروبا .

كل ذلك ذكره التقرير بطريقة جافة من غير تعليق أو توضيح . ولكنك من خلال السطور تحس بروح الغموض والمغامرة والقدرة الخارقة على الافلات من المخاطر فى جرأة وجسارة . وجاء فى ختام التقرير مايلى :

« وشندرالال له زوجة فى الهند وطفلان . وليست له علاقات نسائية ولا يدخن او يشرب الخمر ، ويقال انه امين . وهو ذو شجاعة فائقة وجلد على العمل . ويقال انه شديد الاعتزاز بمحافظته على وعده » .

ولما انتهى اشندن من التقرير اعاده الى الكولونيل ، فساله :

ـ وما رايك .

ـ انه يبدو متعصبا جدا وشديد الخطورة .

والواقع ان اشندن كان يرى فى شخصية شندرالال كثيرا من عناصر الرومانتيكية الجذابة ، ولكنه كان حريصا على عدم الافضاء بهذا الى الكولونيل الذى لا يفقه تلك العواطف . وقال الكولونيل :

ـ الحقيقة يا اشندن انه اخطر متآمر ضدنا داخل الهند وخارجها على السواء . وقد أوقع بنا من الخسائر اكثر مما أوقعه سائر الهنود مجتمعين . فانت تعلم ان هناك عصبة كبيرة من هؤلاء الهنود العصاة فى برلين . ولكن هذا الرجل هو العصب المحرك لهم جميعا . فان استطعنا أن نخرجه من الميدان لم تعد لهم ادنى اهمية لانه الوحيد من بينهم الذى اوتى الذكاء . ولى الآن اكثر من سنة وانا احاول الايقاع به . ولكن كدت أيأس من امكان ذلك . الى أن لاحت لى الفرصة اخيرا . وسوف انتهزها واقبض عليه .

ـ وماذا عساك تصنع به ؟

فضحك الكولونيل وقال :

ـ اطلق عليه الرصاص بلا امهال !

ولم يجب اشندن . ونهض الكولونيل فجعل يذرع الحجرة مرة أو مرتين ثم وقف وظهره الى المدفأة وواجه اشندن وعلى شفتيه النحيفتين ابتسامة ساخرة . وقال :

ـ هل لاحظت ماجاء فى ختام التقرير الذى اطلعتك عليه من أنه ليست له علاقات نسائية ؟

ـ نعم .

ـ كان هذا صحيحا . ولكنه الآن غير صحيح . لقد وقع المغفل فى الحب الى اذنيه !

واتجه الكولونيل الى حافظة الاوراق الموضوعة فوق المنضدة واخرج منها حزمة مربوطة بشريط ازرق باهت من الحرير ، وقال :

ـ انظر ! هاهى ذى خطاباته الغرامية . وانت رجل تؤلف روايات . وقد يروق لك ان تطالعها . بل انك فى الواقع لابد أن تطالعها لانها ستساعدك على معالجة الموقف . فخذ هذه الخطابات معك . وان الانسان ليعجب كيف يسمح رجل قدير ، مثل شندرالال ، لنفسه بالتدلله فى حب امراة . انها آخر ماكنت أتوقعه من تصرفاته .

فرمق اشندن عندئذ الورد الموضوع فى الزهرية فوق المنضدة ولم يقل شيئا . ولم تفت هذه النظرة عين الكولونيل الفاحصة فقطب وجهه ولكنه لم يقل شيئا . وعاد الى الموضوع .

ـ ليس من شاننا على كل حال أن نعلق على افعاله . المهم أن شندرالال يحب امراة تسمى جوليا لازارى الى درجة الجنون .

ـ وهل تعلم كيف تعرف بها ؟

ـ طبعا اعرف كيف تعرف بها ! انها راقصة . تخصصت فى الرقص الاسبانى ولكنها ايطالية الجنسية . وقد اتخذت اسما فنيا لها هو « لاملاجونيا » . ولعلك تعلم ذلك النوع من الرقص على موسيقى اسبانية شعبية مع استعمال حرملة المصارعين الحمراء ومروحة ومشط عال . وقد ظلت ترقص فى ارجاء اوروبا طيلة السنوات العشر الماضية .

ـ وما مستواها ؟

ـ سيىء جدا . كانت تعمل فى انجلترا بملاهى الاقاليم ، ثم عملت بعض الوقت فى لندن ولم يزد اجرها على عشرة جنيهات فى الاسبوع. ولقد التقى بها شندرالال فى برلين حينما كانت تعمل فى احد الملاهى الرخيصة هناك . واعتقد انها فى جولاتها الاوروبية كانت تعتبر قيامها بالرقص مجرد وسيلة لرفع قيمتها واجرها كمومس .

ـ ولكن كيف وصلت الى برلين فى زمن الحرب ؟

ـ كانت متزوجة فى وقت ما من اسبانى . واعتقد انها لم تزل معه ولكنهما لا يعيشان معا . فكانت تنتقل بجواز سفر مع اسبانى يسمح لها بدخول دول المحور . ويبدو ان شندرالال وقع فى هواها من اول وهلة .

وتمعن الكولونيل فى الصورة الفوتوغرافية قليلا ثم استطرد :

ـ ما كان الانسان ليعتقد ان هناك اية جاذبية خاصة لذلك الزنجى الدهنى التكوين . يا الهى : ما اشد قابليتهم للبدانة ! ولكن مما لاشك فيه ان الفتاة احبته مثلما احبها . فتحت يدى صور خطاباتها اليه . اما الخطابات الاصلية فتحت يده . وانا واثق انه يحتفظ بها مربوطة بشريط قرمزى ، انها مجنونة به . وانا لست من رجال الادب . ولكن اظننى اعرف رنة الصدق . وانت ستطالع هذه الخطابات على كل حال وتخبرنى برايك فيها . ومن العجب ان الناس يقولون انه لا وجود لشىء اسمه الحب من اول نظرة .

وابتسم الكولونيل فى تهكم يسير . فقد كان بغير شك معتدل المزاج هذا الصباح ... وساله اشندن :

ـ وكيف حصلت على كل هذه الخطابات الخصوصية ؟

ـ كيف حصلت عليها ؟ انها ايطالية المولد ، ولذلك كانت تطرد بين حين وحين من المانيا الى الحدود الهولندية . ولما كانت لديها عقود للرقص فى انجلترا فقد سمحنا لها بدخول بريطانيا . وعلى هذا الاساس ابحرت فى ٢٤ اكتوبر الماضى من روتردام الى هارويتش ورقصت فى ملاهى لندن وبرمنجهام وبورتسموث وغيرها . ثم قبض عليها منذ اسبوعين فى مدينة هل .

ـ وما السبب ؟

ـ الجاسوسية . ثم نقلت من هل الى لندن وقد توجهت بنفسي فقابلتها في سجن هولوواى .

وتبادل أشندن والكولونيل النظرات برهة من غير أن يتكلما . واعمل كلا منهما كان يحاول بكل جهده أن يقرأ افكار الآخر . وكان أشندن يتساءل عن مدى الصدق في كلمات الكولونيل . ولذا سأله :

ـ ولكن كيف توصلتم الى كشف حقيقتها ؟

ـ لقد تراءى لي انه من الغريب حقا أن يسمح لها الالمان بالرقص في امان مدة اسابيع متوالية في برلين ، ثم فجأة ومن غير سبب ظاهر يقررون اخراجها من البلاد . ان ذلك يبدو تمهيدا جيدا لقيامها بالتجسس . ولا سيما لان الراقصة التي لا تحرص كثيرا على عفتها يمكن أن تصل اليها معلومات ثمينة تدفع برلين فيها ثمنا غاليا . فلما طلبت الاذن بدخول انجلترا رايت أن اسمح لها بالحضور كي تبين ماذا وراءها بالضبط . وابقيت عيني عليها ، فاكتشفت انها كانت ترسل خطاباتها الى عنوان ما في هولندا مرتين او ثلاثا كل اسبوع . ومرتين او ثلاثا كل اسبوع كانت تتلقى ردودا من هولندا وكانت رسائلها مكتوبة بخليط عجيب من الفرنسية والالمانية والانجليزية . فهي تتكلم الانجليزية بصعوبة وعلى قلة . ولكنها تتكلم الفرنسية بطلاقة . اما الردود فكانت مكتوبة كلها بالانجليزية. وبانجليزية متينة التركيب . ولكنها ليست انجليزية رجل انجليزي فهي ذات اسلوب زخرفي يميل للجزالة والفخامة . فكنت اتساءل من عساه يكون كاتب هذه الخطابات . وكانت الخطابات في مظهرها رسائل غرام عادية ولكنها من النوع الشديد السخونة . وكان واضحا جدا انها مرسلة من المانيا ، وان الكاتب ليس انجليزيا ولا فرنسيا ولا المانيا . فلماذا اذن يكتب بهذه الانجليزية ؟ ان الاجانب الوحيدين الذين يعرفون الانجليزية خيرا من معرفتهم لاى لغة اوروبية اخرى هم المشارقة وخاصة الهنود . وهكذا خلصت الى ان حبيب جوليا احد افراد العصابة الهندية التي تدبر الشغب . ولم يخطر ببالي انه شندوالال بنفسه الا عندما عثرت على الصورة الفوتوغرافية .

ـ وكيف حصلت على هذه الصورة ؟

ـ كانت تحملها معها أينما ذهبت ، وتحتفظ بهـا فى حقيبتها المغلقة ، مع مجموعة كبيرة من الصور المسرحية لمغنين ومهرجين ولاعبى السيرك . فكان من الممكن جدا ان يظن الناظر أن تلك الصورة لاحد الفنانين فى ثياب التمثيل . والواقع أننا عندما قبضنا عليها فيما بعد وسألناها عن صاحب الصورة قالت انها لا تعرفه . وأنه عراف هندى اعطاها اياها وليست لديها اية فكرة عن اسمه . وكنت قد ندبت لهذه المهمة فتى اريبا فطنا . وقع لديه موقع الغرابة أن تكون هذه هى الصورة الوحيدة فى المجموعة التى صنعت فى كلكتا . ووجد على ظهرها رقما فاخذ الرقم فى مفكرته واعاد الصورة الى الحقيبة كما كانت .

ـ ولكن كيف استطاع فتاك الاريب ان تصل يده الى الصورة ؟

فومضت عينا الكولونيل وقال :

ـ ليس هذا من شأنك . ولكنى لا ارى مانعا من التصريح لك بأنه كان فتى وسيما عقد معها صلة غرامية ، واخذت تطلعه على تذكاراتها . والمهم أننا عندما حصلنا على رقم الصورة أبرقنا الى كلكتا فجاءنا الرد بأن عشيق جوليا هو شندرالال الذى كنا نظنه نقى الصفحة . وبعدها شددت الرقابة على جوليا ؛ فلاحظت انها تبدى ميلا خاصا لفئة ضباط البحرية . وأنا شخصيا لا الومها على ذلك لان ضباط البحرية فيهم جاذبية . ولكن ليس من الحكمة أن نترك ذوات العفة الجريحة والجنسية المريبة يختلطن بهم كثيرا فى زمن الحرب . وفى زمن وجيز جمعت ادلة كثيرة ضدها .

ـ وكيف كانت توصل معلوماتها الى الاعداء ؟

ـ لم تكن توصل معلوماتها الى الاعداء . ولم تحاول ذلك . لم تكن جاسوسة والالمان طردوها من بلادهم فعلا . ولكنها كانت تعمل لحساب شندرالال شخصيا . وقد رتبت أمرها بعد انتهاء عقد عملها فى انجلترا أن تعود الى هولندا لتلتقى به هناك ، وتفضى اليه بكل ما جمعته من المعلومات . ولكنها لم تكن بارعة فى عملها ؛ بل

كانت عصـــبية . ولـكن طبيعة مهنتها اتاحت لها جمع معلومات قيمة . وفى احدى رسائلها الى شندرالال قالت له بخليطها اللغوى العجيب « لدى الكثير لافضى به اليك يا حبيبى الصغير . مما يهمك كثيرا أن تعرفه » وكانت هذه الجملة الاخيرة بالفرنسية وقد وضعت تحتها خطا .

وسكت الكولونيل قليلا وجعل يفرك يديه . وكان وجهه المجهد قد ارتسمت عليه امارات سرور شيطانى بدهائه ، ثم استطرد :

ـ وبطبيعة الحال لم يكن يهمنى امر تجسسها فى قليل او كثير لان همى كله كان موجها الى شندرالال . فبمجرد القاء القبض عليها دبرت من القرائن ما يكفى لاعدام فرقة كاملة من الجواسيس .

ووضع الكولونيل يديه فى جيوبه وارتسمت على شفتيه ابتسامة كالحة ، وهو يقول لى :

ـ وسجن هولووای ليس جنة الفردوس كما تعلم .

ـ لا اظن اى سجن يمكن ان يكون جنة الفردوس !

ـ ولا سيما هذا السجن بالذات . وقد اعطيت التعليمات اللازمة وتركتها الى ان « نضجت » مدة اسبوع ، قبل ان ابعث فى طلبها فوجدتها فى حالة عصبية متداعية . واخبرتنى السجانة انها اصيبت بنوبات هستيرية عنيفة معظم الوقت . فلا عجب ان بدت كالشبح .

ـ اهى جميلة ؟

ـ ستراها بنفسك . وهى على كل حال ليست من النوع الذى يروق لى شخصيا . واظنها تكون اجمل منظرا عندما تتم زينتها وتضع المساحيق على وجهها . وقد خاطبتها بكل قسوة وانزلت بها الرعب الجهنمى . وهى بطبيعة الحال نفت كل شىء . ولكن الادلة كانت تحت يدى . وقد افهمتها جيدا انه لا نجاة لها من العقوبة الصارمة . وقضيت معها ثلاث ساعات انتهت بانهيارها امامى فاعترفت بكل شىء . وعندئذ وعدتها باخلاء سبيلها اذا استدرجت شندرالال الى الاراضى الفرنسية . فرفضت على الفور رفضا باتا ، وقالت انها تفضل الموت على ذلك . وتشنجت اعصابها فتركتها

تهرف ، ثم قلت لها أني سأتركها لتخلو الى نفسها وتفكر فى اقتراحى مدة يومين . ولكنى تعمدت ان اتركها أسبوعا بأكمله . فلما دعوتها لمقابلتى ، وجدتها مستعدة لتنفيذ ما طلبته منها بغير مناقشة . فأفهمتها كل شيء بغاية الوضوح ، وقبلت بلا معارضة .

ـ لم أفهم بالضبط ماترمى اليه .

ـ حقا ؟ أظن المسألة من اوضح مايكون لاقل الناس ذكاء . فلو انها استطاعت أن تستدرج شندرالال كى يعبر الحدود السويسرية الى فرنسا فانى سأطلق سراحها وأوصلها بأمان الى حدود أسبانيا أو الى امريكا الجنوبية على حسابنا الخاص .

ـ ولكن كيف بحق الشيطان يمكن ان تستدرج شندرالال للحضور ؟

ـ انه مجنون بحبها ، وفى أشد الشوق للقائها . وخطاباته اليها كما ترى تنم عن شغف جنونى . وقد جعلتها تكتب اليه قائلة أنه تعذر عليها الحصول على تأشيرة دخول الى هولندا ، حيث كان مقررا ان تقابله . ولكنها تستطيع الحصول على تأشيرة دخول الى سويسرا . وسويسرا بلد محايد يستطيع ان يأمن فيه على نفسه . وقد تلقف هذه الفرصة وارسل بعدها باللقاء فى لوزان .

ـ وبعد ؟

ـ وعندما يصل الى لوزان سيجد خطابا منها تبلغه أن السلطات الفرنسية رفضت ان تسمح لها باجتياز الحدود السويسرية . وأنها لهذا السبب قررت التوجه الى تونون وهى البلدة الفرنسية التى تقابل لوزان على شاطىء البحيرة . وبينهما خط مواصلات بالزوارق البخارية كما تعلم . وتطلب منه ان يوافيها هناك فى تونون .

ـ وما الذى يحدو بك الى الاعتقاد بانه سيلبى رغبتها ؟

فسكت الكونوبل برهة ثم نظر الى أشندن باسما . وقال :

ـ يجب أن تحمله على الحضور الى هناك اذا كانت راغبة حقا فى الافلات من عقوبة الاشغال الشاقة المؤبدة .

ـ فهمت !

ـ انها ستصل من انجلترا هذا المساء تحت الحراسة . وأريد منك أن تصحبها الى بلدة تونون فى قطار الليل .

فصاح أشندن قائلا :

ـ أنا ؟

ـ نعم أنت . لانى أظن هـذا العمل من الاعمال التى تصلح لها جدا . فالمفروض انك روائى ، ولهذا تعرف عن الطبيعة البشرية اكثر مما يعرف اكثرية الناس . وسيكون من الممتع لك أن تقضى اسبوعا او اسبوعين فى تونون . فهى مكان صغير جميل ومن الاماكن السياحية الراقية فى زمن السلم . وتستطيع أن تستمتع هناك بالاستحمام !

فقاطعه اشندن قائلا :

ـ وماذا تريد منى أن أصنع عندما أصل مع هذه السيدة الى تونون ، فيما عدا الاستحمام طبعا ؟

ـ انى اترك يدك مطلقة فى التصرف . وكل ما هناك انى سجلت بضع ملاحظات قد تكون ذات فائدة لك فى مهمتك . فهل أتلوها عليك ؟

وأصغى اشندن بانتباه شديد . وكانت خطة الكولونيل سهلة واضحة . فلم يسع اشندن سوى الشعور مرغما بالاعجاب بالعقل الماكر الذى دبر هذا التدبير المحكم .

وبعد الانتهاء من التلاوة اقترح الكولونيل أن يخرجا معا لتناول الغداء . وطلب من اشندن أن يأخذه الى مكان يستطيعان فيه مشاهدة البارزين فى الهيئة الاجتماعية .

وراق لاشندن أن يرى الكولونيل الصارم الحازم فى عمله ، يبدو مرتبكا خجولا فى المطعم الفاخر . ثم يتكلم بصوت أعلى مما ينبغى قليلا ، ليحاول الظهور بمظهر من هو على سجيته .

ان حركاته كشفت لاشندن مدى الحياة الضيقة المتواضعة التى عاشها الكولونيل الى أن رفعته مقدرات الحرب الى هذه المكانة

الخطيرة . وبدا عليه السرور العميق لوجوده فى ذلك المطعم الانيق ملاصقا لاصحاب المجد ، واصحاب الاسماء الشهيرة فى العاصمة الفرنسية . ولكنه كان كالتلميذ المراهق فى أول بنطلون طويل يرتديه . واغضّى امام عينى كبير السقاة البراقتين ، وراحت نظراته تجوب أرجاء المطعم بعد ذلك فى اغتباط وزهو لا يخلو من خجل يسير .

واسترعى اشندن انتباهه الى امرأة قبيحة ترتدى ثوبا أسود ولكنها ذات قوام جميل وتزين نحرها بعقد طويل من اللآلىء ، وقال له :

ـ هذه مدام دبريد . عشيقة الفراندوق تيودور . ولعلها من اعظم النساء نفوذا فى اوروبا . وهى يقينا من ادهاهن .

ونظر اليها الكولونيل قليلا ثم احمر وجهه وقال :

ـ هذه هى الحياة وايم الحق !

ورمقه اشندن صامتا . فالترف شىء خطير التاثير على من لم يالفوه . ان اغراءه شديد على من يفاجأون به . فهاهو ذا الكولونيل الحصيف الداهية وقد سلب لبه هذا المنظر البراق الذى امامه .

وبعد ان فرغا من تناول غذائهما ، وشرعا يشربان القهوة وقد ارتسمت علامات الرضا التام على وجه الكولونيل ، عاد اشندن الى الموضوع :

ـ هذا الهندى لابد انه شخصية ممتازة ؟

ـ انه ذكى العقل طبعا .

ـ ان الانسان لا يمكن ان يخلو من الاعجاب برجل استطاع أن يناصب فى شجاعة وبمفرده تقريبا السلطة البريطانية فى الهند .

فقال الكولونيل بلهجة قاطعة :

ـ لو كنت فى مكانك لما اضفيت عليه شيئا من عواطفى . فهو فى الواقع ليس سوى مجرم خطير . انه كان يستخدم القنابل الزمنية فى ازهاق أرواح بريئة .

فقال اشندن :

ـ لا اظن انه كان يعمد الى استخدام القنابل الزمنية او غير الزمنية لو كان تحت يده بضعة الوية . ان الرجل يستخدم الاسلحة التى تتاح له . ولا اخالك تعيب عليه ذلك ، ولاسيما انه بعد كل حساب لا يرمى الى هدف شخصى . اليس كذلك ؟ انه يرمى الى تحرير وطنه . وكل جريرته اننا نحتل ذلك الوطن . فكل شىء يدل على ان له فى تصرفاته نحونا ما يبررها تبريرا قويا .

وكأنما كان اشندن يتكلم لغة صينية ! فقد قال الكولونيل :

ـ هذا تخريج فيه تعسف شديد للامور . وهذه على كل حال موضوعات لا نستطيع أن نخوض فيها . ومهمتنا ان نضع يدنا عليه . ومتى تم لنا ذلك نقتله رميا بالرصاص .

فلم يسع اشندن الا ان يقول :

ـ طبعا طبعا . لقد اعلن علينا الحرب ويجب ان يتحمل تبعة ذلك . وانا من جهتى سانفذ تعليماتك بدقة . هذا هو واجبى . ولكنى لا ارى مانعا مع ذلك من الاعجاب بالرجل واحترامه .

فنظر الكولونيل الى اشندن وقد عادت اليه صرامته وحزمه وقال :

ـ لست واثقا ايهما اصلح لهذا الطراز من المهام . اهو الرجل الذى ينفعل بما يمارسه من عمل ، ام الذى لا تتحرك عواطفه بشىء . وهناك من يشفى غليلهم الايقاع بأحد اعداء الوطن ، كأنها خدمة شخصية أديت لهم او ثأر شخصى اخذوه . ومثل هؤلاء يؤدون عملهم بحماسة ، اما انت فالمسألة فى نظرك لا تعدو لعبة رياضية ، او مباراة شطرنج من غير حقد على الاعداء والخصوم . بل ومع الاعجاب بهم أحيانا . ولكن طرازك يصلح لمهام معينة اكثر من سواها .

ولم يجب اشندن ، ودفع حساب الغداء ثم افل راجعا مع الكولونيل الى الفندق .

الفصل الثامن

جوليا

كان موعد انطلاق القطار فى الساعة الثامنة . فلما فرغ اشندن من ترتيب حقائبه اخذ يذرع افريز المحطة . ووجد جوليا لازارى فى احدى عربات القطار . ولكنها كانت جالسة فى ركن مشيحة عن مسقط الضوء فلم يستطع أن يتبين وجهها ، وكانت فى حراسة اثنين من رجال البوليس السرى الفرنسى ، تسلماها من رجال البوليس الانجليزى فى بولونيا ، وكان أحد الشرطيين قد عمل مع اشندن فى منطقة الحدود الفرنسية المشرفة على بحيرة جنيف . فأومأ لاشندن بالتحية ثم قال :

ـ سألت السيدة أن كانت تحب أن تتناول العشاء فى عربة الطعام ولكنها فضلت أن تتناوله هنا ولهذا طلبت من عربة الطعام اعداد سلة للعشاء . فهل هذا الاجراء صائب ؟

ـ نعم .

ـ وسنتناوب انا وزميلى الذهاب الى عربة الطعام بحيث لا تبقى السيدة وحدها . . .

ـ احسنت . وساحضر من عربتى بعد قيام القطار لاجاذبها اطراف الحديث قليلا .

فقال المخبر :

ـ انها ليست مستعدة تماما للانطلاق فى الكلام .

ـ لست اتوقع منها ذلك الاستعداد .

وانصرف اشندن فتناول طعامه . وكانت جوليا لازارى تختم طعامها عندما عاد اليها . وبنظرة خاطفة الى سلة الطعام ادرك ان شهيتها للطعام لم تكن ضئيلة للغاية . وأومأ اشندن الى المخبر الذى فتح الباب فتركهما وحدهما .

ورمقته جوليا بنظرة شذراء . فقال وهو يجلس قبالتها :

ـ أرجو أن يكونوا قد احضروا لك كل ما طلبته من الوان الطعام ؟

فأحنت راسها ولم تتكلم . فأخرج علبة سجائره وقال لها :

ـ ألك فى سيجارة ؟

فألقت عليه نظرة ثم ظهر عليها التردد ، وبعد ذلك تناولت سيجارة من غير أن تنطق بكلمة . واشعل اشندن عود ثقاب فأوقد سيجارتها ، وانتهز الفرصة لينظر الى وجهها فى ضوء الثقاب . واستولت عليه الدهشة . فهو لسبب ما كان يتوقع أن يجدها شقراء . ولعل ذلك لاعتقاد سابق لديه أن المشارقة أحرى أن تستهويهن الشقراوات . ولكنها سمراء داكنة تقريبا . وشعرها تخفيه قبعة ضيقة ، ولكن عينيها سوداوان كأنهما قطعتان من الفحم الحجرى . ولم تكن صغيرة السن . فلعلها كانت فى الخامسة والثلاثين . وبشرتها كثيرة الفضون كالحة . كما كان وجهها خاليا تماما من المساحيق ، فبدت فى منظر متهدم . ولم يكن فى مرآها شىء جميل سوى عينيها الرائعتين .

وكان جسمها ضخما بحيث ظن أشندن أنها لا يمكن أن تؤدى بهذا الجسم رقصاتها فى رشاقة . ولاسيما اذا ارتدت ثياب الرقص الاسبانية . ولكن لعل أضواء المسرح ، وثياب الرقص الزاهية ، تضفى عليها شيئا من الفتنة . اما وهى على هذه الحالة فى القطار ، فلا يمكن أن يتصور المرء سر هيام ذلك الثائر الهندى بها . .

وعلى ضوء الثقاب رمقت أشندن بنظرة تحاول بها سبر غوره . فهى بغير شك كانت تتساءل فيما بينها وبين نفسها اى طراز من الرجال عساه يكون .

ونفثت سحابة من الدخان من انفها ، واخذت تتابع تلك السحابة بنظراتها برهة ، ثم ردت بصرها الى أشندن . واستطاع ان يفطن الى أن هدوءها ليس الا قناعا . وانها فى الواقع كانت متوترة الاعصاب مرتاعة . وكانت تتكلم الفرنسية بلهجة ايطالية . قالت :

ـ من انت ؟

ـ اسمى لايعنى شيئا بالنسبة لك ياسيدتى . حسبك ان تعلمى اننى ذاهب الى تونون . وقد حجزت لك غرفة فى فندق لابلاس . وهو الفندق الوحيد الذى يفتح ابوابه هناك فى هذا الفصل من السنة . واعتقد انك ستجدين الاقامة فيه مريحة .

ـ آه ! انت اذن الذى حدثنى الكولونيل عنك . انت سجانى .

ـ من الناحية الشكلية فقط ، ولن اتطفل عليك .

ـ انت سجانى على كل حال ...

ـ وارجو على كل حال الا يدوم ذلك مدة طويلة . فانى احمل فى جيبى جواز سفرك وقد استكملت فيه جميع الاجراءات الشكلية والرسمية للسماح لك بالسفر الى اسبانيا .

فألقت بنفسها الى ركن العربة ، وظهر على وجهها الشاحب وعينيها السوداوين الكبيرتين منتهى اليأس ، ثم قالت :

ـ هذا شىء فظيع . واظننى كنت اموت سعيدة لو اننى استطعت ان اقتل ذلك الكولونيل العجوز . انه رجل بلا قلب . ما اشقانى !

ـ اخشى ان تكونى قد اوقعت نفسك فى مازق شديد الحرج . الم تكونى تعلمين ان الجاسوسية لعبة خطرة ؟

ـ انى لم ابع اى سر من اسراركم . لم ارتكب سوءا

ـ وذلك يقينا لانه لم تتح لك الفرصة . وانت فيما فهمت قد وقعت على اعتراف كامل مفصل .

وكان اشندن يتحدث اليها بأرق ما يستطيع من عبارة ، وكانه الى حد ما يتحدث الى شخص مريض . فلم تكن فى صوته ادنى خشونة .

ـ اجل كنت مغفلة الى حد كبير فكتبت الخطاب الذى حملنى الكولونيل على كتابته . فلماذا لا يكتفى بذلك ؟ ما الذى يحدث لى ان لم يجب ؟ انا لا استطيع ان اكرهه على الحضور ان كان لا يريد ان يحضر .

فقال لها اشندن :

ـ لقد وصل رده بالفعل . وانا احمله معى .

فأجفلت واضطرب صوتها وقالت :

ـ اوه . أرنى جوابه . أتوسل اليك أن تدعنى أطلع عليه .

ـ ليس عندى مانع من ذلك . ولكن يجب أن تعيديه الى بعد تلاوته .

ـ أعدك بذلك .

واخرج خطاب شندرالال من جيبه وأعطاها اياه . فاختطفته من يده اختطافا والتهمته بعينيها . وكان ثماني صفحات . واخذت الدموع وهى تقرأ تنهمر على وجنتيها . وفيما بين شهقاتها وزفراتها كانت تتمتم بعبارات الحب ، وتنادى الكاتب بأعذب أسماء التدلله والتحبب بالفرنسية والايطالية . وكان ذلك الخطاب هو الذى كتبه شندرالال ، ردا على خطابها الذى قالت له فيه بناء على تعليمات الكولونيل انها ستقابله فى سويسرا . فكاد يجن من الفرح بتلك الفرصة . وعبر لها فى صفحات خطابه الملتهبة عن بطء الوقت وطوله عليه منذ افترقا ، وكيف كان يصبو اليها ، ويتحرق شوقا الى رؤياها . والآن وقد تقرر أن يلتقى بها مرة أخرى قريبا فهو لا يدرى كيف سيتسنى له أن يتحمل الانتظار وقد عيل صبره .

وما أن أتمت تلاوة الخطاب حتى انفرجت أصابعها فسقط على الارض ، وقالت فى يأس شديد :

ـ هانتذا ترى كم يحبنى . ألست ترى ذلك ؟ ما من شك فى هذا . صدقنى فأنا ذات خبرة فى هذا الامر .

وعندئذ سألها أشندن :

ـ وانت ؟

ـ ماذا تعنى ؟

ـ وانت هل تحبينه حقا ؟

ـ انه الرجل الوحيد الذى كان عطوفا على . وليست الحياة التى يحياها من يعملون فى الملاهى بالحياة المرحة المريحة . فهم يتنقلون فى جميع أرجاء أوروبا ، ولا يستقرون أبدا . والرجال الذين يترددون على تلك الاماكن ليسوا دائما من ذوى الرجولة .

ولذا ظننت فى البداية أنه رجل كالآخرين من الرواد . .

والتقط اشندن الخطاب من على الارض ووضعه فى جيبه ثم قال لها :

ـ لقد ارسلنا باسمك برقية الى العنوان المتفق عليه فى هولندا ، نخبره انك ستكونين فى فندق جيبونز بمدينة لوزان فى اليوم الرابع عشر .

فقالت جوليا بدهشة :

ـ يعنى غدا .

ـ بالضبط .

فرفعت رأسها ولمعت عيناها وقالت :

ـ ما اقبح هذا الذى ترغموننى على فعله ارغاما . انه لشائن .

ـ مامن احد يرغمك على فعله .

ـ واذا لم افعل ؟

ففال اشندن بهدوء تام :

ـ اخشى ما أخشاه أنك ستضطرين لتحمل نتيجة ذلك .

فصرخت :

ـ بعنى السجن ؟

ـ بالتأكيد .

فاشتد صراخها :

ـ لا استطيع أن اذهب الى السجن . لا استطيع . لا استطيع . غير معقول ان اقضى كل تلك السنوات فى الاشغال الشاقة .

ـ اذا كان الكولونيل قال لك انك ستعاقبين بالاشغال الشاقة فثقى ان ذلك صحيح . انه امر غير مستحيل الحدوث .

ـ انا اعرفه . اعرف هذا الوجه الذى ينطق بالقسوة . ان مثله لا يعرف الرحمة . واذا خرجت بعد سنوات من السجن مع الاشغال الشاقة ماذا يكون مصيرى ؟ ماذا يكون قد بقى منى ؟ كلا كلا .

وفى هذه اللحظة وقف القطار فى احدى المحطات ونقر على زجاج

الباب المخبر المنتظر فى الدهليز ، ففتح أشندن الباب فأعطاه الرجل بطاقة بريد من النوع المصور . وكانت الصورة تمثل منظرا سخيفا لمحطة بونترلييه على الحدود الفرنسية السويسرية . وقدم اليها أشندن قلم رصاص قائلا :

ـ اكتبى هذه البطاقة الى حبيبك ، وسنرسلها من مكتب بريد بونترلييه . واجعلى العنوان على الفندق فى لوزان .

فرمقته جوليا بنظرة قاسية ، ولكنها لم تتكلم وتناولت القلم وكتبت ما أملاه عليها . وختم الاملاء :

« لقد تأخرت على الحدود . ولكن اطمئن وانتظرنى فى لوزان »

ثم تناول منها بطاقة البريد وقراها ليطمئن على انها كتبت ما أملاه عليها حقا ، ثم تناول قبعته وقال :

ـ والآن اتركك . وأرجو أن تستطيعى النوم . وسأحضر فى الصباح لاصحبك عندما نصل الى تونون .

وكان المخبر الآخر قد عاد من تناول طعامه فلما خرج أشندن من العربة دخل الرجلان وانزوت جوليا فى ركنها . وأعطى أشندن بطاقة البريد الى رسول كان ينتظر كى يحملها الى بونترلييه ، واتجه أشندن على الاثر نحو عربة نومه .

وكان الصباح مشمسا صحوا رغم برودة الجو عندما وصلوا الى وجهتهم وسلم أشندن حقائبه الى حمال وسار فوق الافريز الى حيث كانت جوليا لازارى واقفة بين المخبرين . وأومأ أشندن اليهما براسه :

ـ طاب صباحكما . لا حاجة بكما الى الانتظار بعد .

فرفعا قبعتيهما وودعا المراة وانصرفا . فسألته :

ـ الى اين هما ذاهبان ؟

ـ الى غير رجعة . سوف لايضايقانك بعد الآن .

ـ هل انا فى حراستك اذن ؟

ـ لست فى حراسة احد . كل ما هناك انى سأسمح لنفسى بمرافقتك الى فندقك ثم اتركك . لانه عليك أن تحاولى الحصول على قسط من الراحة .

وحمل اشندن حقائبها ثم خرج الاثنان من المحطة . وكانت هناك عربة فى انتظارهما ، فطلب منها اشندن بكل ادب ان تركبها . وكانت الرحلة الى الفندق طويلة شيئا ما . وبين الحين والحين كان يشعر بأنها ترمقه بنظرة جانبية ، رغم انها كانت بادية الحيرة .

أما اشندن فجلس صامتا لا ينطق بكلمة . ولما وصلا الى الفندق الصغير القائم وسط منظر بديع للغاية ، صحبهما المدير الى الحجرة التى أعدت لنزول مدام لازارى . فقال له اشندن بعد أن تفقدها :

ـ انها على مايرام . سانزل بعد دقيقة .

فانحنى مدير الفندق وانسحب وتركهما وحدهما . وعندئذ قال اشندن :

ـ سابذل كل مافى وسعى لتوفير اسباب الراحة لك ياسيدتى . وثقى انك هنا سيدة نفسك ، ومن حقك أن تطلبى أى شىء تصبو نفسك اليه . وانت فى نظر مدير الفندق نزيلة كأى نزيل آخر فى الفندق . انت حرة تمام الحرية .

فسألته بسرعة :

ـ وحرة ايضا فى الخروج ؟

ـ طبعا . لك أن تخرجى كما تشائين .

فقالت متهكمة :

ـ وعلى كل جانب من جانبى شرطى فيما اعتقد !

ـ كلا . انك حرة الحركات فى هذا الفندق كأنك فى منزلك تماما . وحرة فى الخروج من الفندق والعودة اليه كلما راق لك ذلك . واحب أن أحصل منك على تأكيد بأنك لن تكتبى خطابات بغير علمى . ولا أن تحاولى مغادرة تونون من غير اذنى .

فرمقت اشندن بنظرة طويلة ولم تستطع ان تسبر غوره ولا ان تفهم سر هذا التيسير ، وبدا عليها كأنها فى حلم ، ثم قالت :

ـ انى فى موقف يرغمنى على تقديم جميع التأكيدات التى تطلبها منى .. ولذا أعدك وعد الشرف انى لن اكتب خطابا من غير ان أطلعك عليه ، ولن أحاول مغادرة هذه البلدة .

ـ شـــكرا لك . والآن سأتركك . وســوف يســعدنى أن آتى لزيارتك غدا صباحا . طاب يومك .

وانحنى اشندن رأسه ثم انصرف . ومر بمركز الشرطـة فقضى فيه خمس دقائق ليتأكد من أن جميع الترتيبات على ما يرام ثم استقل العربة ، وصعد التل الى بيت منعزل عند مشارف البـلدة كان ينزل فيه كلما جاء اليها فى زيارته الدورية .

وطاب له ان يستحم ويحلق ذقنه ، ويريح قدميه فى الخف الرخو وشعر برغبة فى الاسترخاء فقضى بقية الصباح يطالع قصة .

وفى جنح الظلام جاءه شرطى من مركز الشرطة اسمه فليكس . وكان قدومه فى الليل بسبب الرغبة فى عدم لفت الانظار الى اشـندن حتى وهو فى الاراضى الفرنسية . وكان فليكس فرنسيا قصير القامة اسمر اللون ، له عينان ثاقبتان وذقن غير حليـق ، ويرتدى بدلة رمادية اللون بعيدة عن الاناقة والجدة ، فكان مظهره اشبه بـكاتب محام متعطل .

وقدم اشندن الى هذا الجندى كاسا من النبيذ وجلس الاثنـان بجوار نار المدفأة . ثم قال فليكس :

ـ ان تلك السيدة لم تضيع وقتها سدى . فبعد وصـولها إلى الفندق بربع ساعة غادرته ومعها حزمة من الثياب والحلى الرخيصة فباعتها فى دكان قريب من سوق البلدة . ولمـا وصـل الزورق بعد الظهر الى الميناء ذهبت الى الرصيف وابتاعت تذكرة الى ايفيان .

وايفيان هى المكان التالى لتونون فى الاراضى الفرنسيةعلى شاطىء بحيرة لوزان . ومن هنـاك يعبر الزورق البحـيرة الى الاراضى السويسرية .

واستطرد فليكس :

ـ ولما كانت بطبيعة الحال لا تحمل جواز سـفر لم يسمحوا لها بركوب الزورق .

ـ ولكن كيف فسرت عدم حصولها على جواز سفر ؟

ـ قالت انها نسيته . وقالت انها على موعد لمقابلة اصـدقاء لها

فى ايفيان . وحاولت ان تقنع الموظف المختص بتركها تسافر . بل وحاولت ايضا أن تدس فى راحة يده مائة فرنك .

فقال أشندن :

ـ لابد أنها اغبى مما كنت أتصور

***

ولما توجه فى اليوم التالى فى نحو الساعة الحادية عشرة صباحا لمقابلتها لم يشر من قريب او بعيد الى محاولتها الفرار . وكانت الفرصة قد اتيحت لها كى تنسق مظهرها فوجد شعرها مرجلا ترجيلا تاما بعناية فائقة . وقد طلت شفتيها وخديها ، وبدت أحسن مظهرا بكثير مما رآها لاول مرة .

وقال لها أشندن :

ـ لقد احضرت اليك بضعة كتب .

ـ لماذا ؟

ـ اخشى أن يكون الوقت بطيئا ثقيل الوطأة عليك .

ـ وماذا يضيرك من ذلك ؟

ـ ليست لدى رغبة على الاطلاق فى أن تعانى أى نوع من الالم استطيع تجنيبك اياه . وساترك لك هذه الكتب على كل حال وفى استطاعتك ان تقرئيها او لا تقرئيها على حسب مايتراءى لك .

ـ آه لو علمت كم كرهتك !

ـ ان هذا طبعا لا يسعدنى . ولكنى فى الحقيقة لا ارى مبررا لحقدك على . فانا اؤدى الواجب المفروض علىوانفذ الاوامر ليس الا .

فسألته باقتضاب :

ـ ماذا تريد منى الآن ؟ فلا اخالك جشمت نفسك الحضور لكى تطمئن على صحتى فحسب !

فابتسم أشندن وقال :

ـ اريد منك أن تكتبى خطابا الى حبيبك تقولين فيه ، انه بسبب نقص بعض الاجراءات الشكلية فى جواز سفرك رفضت السلطات السويسرية أن تسمح لك باجتياز الحدود ، ولهذا جئت الى هنا

حيث الموقع جميل جدا وهادىء جدا ، هادىء الى درجة يصعب معها أن يصدق الانسان بأن هناك حربا عالمية . وتختمين رسالتك بأن تقترحي على شندرالال الحضور كي يلحق بك هنا .

فرمقته جوليا بنظرة حادة وقالت :

ـ وهل تظن شندرالال ابله ؟ انه سيرفض الحضور .

ـ في هذه الحالة يجب عليك أن تبذلي أقصى مافي وسعك لاغرائه بالحضور . .

فنظرت جوليا الى اشندن طويلا من غير أن تجيب . وخامره الظن بأنها كانت تتداول في الامر بينها وبين نفسها . فلعلها بكتابة الخطاب المطلوب والتظاهر بالرضوخ التام تكسب فسحة من الوقت

واخيرا قالت جوليا :

ـ حسنا . امل على وساكتب ماتريد .

فابتسم اشندن ابتسامة ماكرة وقال :

ـ بل افضل أن تكون الرسالة من انشائك وبطريقتك الفريدة المعتادة بينكما .

ـ امنحني نصف ساعة وسيكون الخطاب معدا .

فقال اشندن بهدوء :

ـ سانتظر هذه النصف ساعة هنا .

فسألته بدهشة .

ـ لماذا ؟

فقال بهدوء حازم :

ـ لاني أوثر ذلك .

فومضت عيناها بنار الغضب ، بيد انها تحكمت في اعصابها ولم تقل شيئا . وكانت على منضدتها أدوات للكتابة ، فجلست وبدأت تكتب .

ولما قدمت الى اشندن الخطاب بعد فراغها من تحريره لاحظ ان شحوبها كان واضحا تحت طلائها الاحمر الثقيل .

وكان الخطاب خطاب شخص لم يتعود كثرة استعمال الحبر في

التعبير عن نفسه . ولكن الخطاب كان وافيا بالغرض . وكانت عبارات الحب نابضة بالحياة والصدق . وضغط اشندن على أعصابه وقال لها :

ـ والآن أضيفى هذه العبارة .

ـ قل .

ـ « ان الذى يحمل اليك رسالتى رجل سويسرى فى وسعك أن تطمئن اليه طمأنينة مطلقة . فانى لم احب ان يتعرض خطابى هذا لعيون الرقابة على البريد » .

وسألته فى هجاء بعض الكلمات فقال لها :

ـ اكتبيها بهجائك الخاص . والآن اكتبى العنوان على مظروف بخطك وبعدها سأخلصك من سجنتى .

وسلم اشندن الخطاب الى احد عملائه السويسريين الذى كان ينتظر كى يحمله عبر البحيرة . وفى مساء ذلك اليوم نفسه اتاها اشندن بالرد فانتزعته من يديه وضغطته فوق قلبها لحظة قبل ان تطالعه . ولما طالعته اطلقت صرخة ارتياح :

ـ لن يأتى .

وكان الخطاب مكتوبا بتلك الانجليزية المزركشة الاسلوب ، وقد عبر فيها اشندى عن خيبة امله المريرة وكيف انه كان يتطلع فى شوق ولهفة الى لقائها . وتوسل اليها توسلات حارة أن تفعل كل ما يمكن فى تذليل العقبات التى حالت بينها وبين عبور الحدود السويسرية . واكد لها انه من المستحيل عليه أن يأتى الى فرنسا باية صورة . فهناك ثمن غال فى صورة جائزة لمن يأتى برأسه حيا او ميتا . ومن الجنون أن يجازف برأسه ، ثم أردف ذلك بعبارة مازحة :

ـ « ولا أظنك راغبة فى ان يعدم بالرصاص حبيبك الاسمر البدين باريحانة قلبى » .

وعادت جوليا تقول فى سرور فائق :

ـ لن يأتى . لن يأتى .

ـ يجب ان تكتبى اليه مرة اخرى لتؤكدى له انه لا مخاطرة على الاطلاق .

ـ لن يصدقني .

ـ سيصدقك اذا قلت له انه لو كانت هناك اية مخاطرة لما جال بفكرك لحظة واحدة ان تطلبي منه القدوم . وقولي له ايضا انه ان كان يكن لك حبا صادقا فلن يتردد هكذا في الاجتماع بك وانت على قيد كيلومترات قليلة .

ـ لن اكتب اليه شيئا من هذا .

ـ لا تكوني بلهاء . فكري في مصيرك ؟

فانفجرت فجاة تبكي بدموع غزيرة . ثم القت بنفسها على الارض وتعلقت بركبتي اشندن متوسلة اليه ان يرحمها :

ـ انا على اتم استعداد ان ابذل لك اي شيء في الدنيا ان انت تركتني اذهب لحال سبيلي . اذهب اليه .

فقال اشندن :

ـ ما اسخفك ؟ اتظنينني اريد ان اكون عشيقك ؟ اصغي لصوت العقل وفكري في مصيرك .

فنهضت واقفة على قدميها وتبدلت فجاة من النقيض الى النقيض : تبدلت من التوسل والتضرع الى الفيظ والنقمة والغضب واخذت تقذف في وجه اشندن باقذع انواع السباب والنعوت كالسيل الجارف . فقال :

ـ انا افضل سبابك على توسلاتك . ذلك افضل لي . والآن اما ان تكتبي كما امرتك او ارسل في طلب الشرطة !

ـ ولكنه لن ياتي . كل هذا مجهود ضائع .

فقال اشندن باصرار :

ـ من مصلحتك ان تغريه بالحضور .

فنظرت اليه بدهشة وقالت :

ـ ماذا تعني بذلك ؟ اتعني انني حتى لو بذلت كل مافي وسعي وفشلت فمع ذلك سوف ...

وظهر الذعر في عينيها ولم تجسر على اتمام عبارتها . فاومأ اشندن برأسه في هدوء وحزم وقال :

ـ نعم . أما هو وأما انت ؟

فترنحت . ورفعت يدها الى قلبها . ثم مدت يدها من غير أن تنطق الى القلم والورق . وسطرت خطابا لم يرق فى نظـــر اشـــندن فحملها على اعادة المحاولة . ولما فرغت منه ارتمت فوق الفـــراش وانفجرت مرة اخرى فى نوبة عاصفة من البكاء .

كان حزنها صادقا . ولكن تعبيرها عنه كان لا يخلو مـن عنصر مسرحى . وذلك ما خفف من وطأة تأثيرها على اشندن .

وساعد اشندن على تحمل الموقف انه كان ينظر اليها نظرة خاليـة من العامل الشخصى كنظرة الطبيب الى الم يعجز طبه عن تخفيفه . وادرك الآن لماذا اختاره الكولونيل لهذه المهمة بالذات .

الفصل التاسع

ثورة عارمة

ولم يرها اشندن فى اليوم التالى . فان الرد على خطابها لم يسلم اليه الا بعد وجبة العشاء ، عندما أحضره فليكس الى بيت اشندن الصغير . وسأل اشندن الشرطى الفرنسى :

ـ ماذا وراءك من الاخبار ؟

فابتسم الفرنسى ، وقال :

ـ ان صاحبتنا بدأ اليأس يستولى على قلبها . وبعد ظهر اليوم سارت الى المحطة فى اللحظة التى كان أحد القطارات يتأهب فيها للرحيل الى ليون . ورأيتها تنظر فى طول الرصيف وعرضه فى تردد . فاتجهت نحوها وسألتها بكل أدب وحزم ان كانت فى حاجة الى أى شىء استطيع أن أؤديه لها . وقدمت لها نفسى باعتبارى مخبرا فى ادارة الامن العام .

ـ وماذا قالت لك ؟

فازدادت ابتسامة الفرنسى اتساعا وهو يقول :

ـ أقسم لك لو ان النظرات كانت كافية للقتل ، لما وجدتنى الان واقفا بين يديك !

فقال اشندن :

ـ اجلس ياصديقى .

ـ شكرا لك . وما كان منها بعد ذلك الا أن انصرفت من المحطة . وكان واضحا انها أيقنت بعبث محاولة ركوب القطار . ولكنها لم تقف مكتوفة اليدين . بل هناك شىء مثير حقا للاهتمام اقدمت عليه تلك السيدة ، وأريد أن افضى به اليك .

ـ وماهو ؟

ـ عرضت الف فرنك على نوتى يملك قاربا فوق بحيرة لوزان كى يعبر بها البحيرة الى الشاطىء السويسرى .

فظهر الاهتمام على وجه اشندن وقال له :

ـ وماذا كان رد النوتى ؟

ـ انه لا يستطيع الاقدام على هذه المخاطرة .

ـ وبعد ؟

فهز المخبر الفرنسى كتفيه وابتسم قائلا :

ـ فطلبت اليه أن يقابلها على الطريق المفضى الى ايفيان فى الساعة العاشرة من هذه الليلة ، كى تستأنف مفاوضته فى هذا الموضوع . وقد لمحت له من طريق خفى بأنها لن ترفض بكل اباء وشمم رغبته فى الاختلاء بها اختلاء غراميا . ولما قال لى الرجل ذلك قلت له اننى لا أبالى ماذا يكون بينه وبينها ، فذلك شأنه وحده مادام سيأتى بعدها ويفضى الى بكل ماله أهمية من الحديث .

وسأله اشندن عندئذ :

ـ هل انت متأكد بأنه اهل للثقة ؟

ـ جدا . فهو لا يعرف شيئا بالطبع سوى أنها تحت رقابة شرطة الامن . فلا حاجة بك الى القلق من جهته . انه فتى يعتمد عليه ، وقد عرفته منذ طفولته .

وقرأ اشندن رسالة شندرالال فاذا بها تفيض باللهفة والهيام هياما حقيقيا يدل على حب صادق كأصدق ما يعرفه اشندن عن الحب عند الناس . وقد حدثها فى الخطاب كيف يجد الساعات طويلة طويلة وهو يقضيها فى السير على قدميه على شاطىء البحيرة ، وعيناه متعلقتان بالشاطىء الآخر ، شاطىء فرنسا ؟ وكيف انهما قريبان غاية القرب ، وبينهما مع ذلك اقسى حائل عازل .

وحدثها مرة اخرى فى عبارات كثيرة مكررة المعنى انه لا يستطيع ان يأتى اليها . وتضرع اليها الا تلح فى ذلك الطلب . فهو خليق ان يقدم على اى شىء فى الدنيا من أجلها . اما هذا فلا يجسر على الاقدام عليه . ومع ذلك فلو الحت فكيف عساه يجد قدرة فى نفسه على المقاومة ؟

وتوسل اليها ان تشفق عليه . ثم اطلق صرخة ألم ممض فى عبارات طويلة مؤثرة لانه يجب ان يرحل من غير أن يراها . وسألها أن تبحث عن أية وسيلة للتسلل من الحدود والحضور اليه . ثم اقسم انه لو اتيح له أن يضمها بين ذراعيه لما افلتها ولا سمح أن يكون بينهما فراق مادام حيا .

كانت عباراته ملتهبة تكاد تحرق صفحات خطابه . كانت رسالة رجل سلب الالم عقله ...

وسأل اشندن المخبر الفرنسى :

ـ ومتى تتوقع أن تسمع نتيجة مقابلتها مع النوتى ؟

فقال الفرنسى :

ـ لقد رتبت معه الامر بحيث اقابله فى الميناء فيما بين الحادية عشرة ومنتصف الليل .

فقال اشندن وهو ينهض :

ـ سآتى معك .

ومشى الاثنان فهبطا التل الذى يقوم على قمته البيت المنعزل ، ثم عرجا على الميناء ووقفا بالقرب من ادارة الجمرك . وبعد برهة من الانتظار اقبل نحوهما رجل ، فخرج فليكس من الظل الذى يخفيهما وقال :

ـ انطوان ؟

فأجاب القادم :

ـ مسيو فليكس ؟ معى شىء لك .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أعنى انه شىء يهمك الحصول عليه .

ـ ماهو ؟

ـ خطاب وعدت أن احمله الى لوزان بنفسى على أول زورق يقلع من هنا فى الصباح .

ولم يحاول اشندن ان يسأل الرجل ماذا جرى بينه وبين جوليا لازارى حتى قبل أن يؤدى لها هذه الخدمة السرية . وتناول الخطاب

ثم استعان بمصباح فليكس الكهربائى على قراءته . وكان مكتوبا بلغة المانية ركيكة كثيرة الاغلاط على قلة كلماته :

« لا تحضر لاى سبب وبأى شكل . تحفظ على رسائلى . هناك خطر يحيق بك . احبك . واياك ياحبيبى ان تحضر »

ووضع اشندن الرسالة الصغيرة فى جيبه ثم أعطى النوتى خمسين فرنكا ، وعاد الى بيته كى ينام .

وفى اليوم التالى ذهب اشندن لزيارة جوليا لازارى فوجد باب حجرتها بالفندق مقفلا بالمفتاح . وظل يطرق الباب برهة فلم يتلق جوابا . فراح يناديها وهو يهز الباب :

ـ مدام لازارى ! يجب ان تفتحى الباب . اريد ان اتحدث اليك ..

فجاء صوتها من الداخل :

ـ انا فى الفراش . مريضة ولا استطيع ان اقابل احدا .

فقال اشندن باصرار :

ـ يؤسفنى هذا ولكن يجب ان تفتحى الباب .

ـ قلت لك انى مريضة .

ـ اذن سارسل فى طلب الطبيب .

ـ انصرف . قلت لك لن اقابل احدا فلا تتعب نفسك !

ـ ان لم تفتحى الباب سارسل فى طلب صانع الاقفال كى يفتحه عنوة .

وساد الصمت برهة ثم سمع صرير المفتاح يدور فى القفل ، ودخل اشندن فرآها فى ثوب النوم وشعرها مشعث . فكان واضحا انها خرجت لتوها من الفراش .

ونظرت اليه بانكسار ، وقالت :

ـ لقد استنفدت قوتى ولا طاقة لى بعمل شىء . يكفى ان تنظر الى سحنتى لتعرف انى مريضة . والواقع انى كنت مريضة اشعر بغثيان طول الليل . لم استطع ان انام . راسى يكاد ينفجر .

فقال اشندن :

ـ لن أستبقيك طويلا . أتحبين ان ندعو طبيبا ؟

فمطت شفتيها وقالت بأسى :

ـ وماذا يستطيع لى الطبيب ؟

فأخرج اشندن من جيبه الخطاب الذى كانت جوليا قد أعطتـــه للنوتى وقدمه اليها قائلا :

ـ ما معنى هذا ؟

فشهقت عندما رأت رسالتها واخضر لون وجها الشاحب .

فقال اشندن :

ـ لقد أعطيتنى وعد الشرف أنك لن تحاولى الهرب او ارســـال خطاب الى حبيبك من غير علمى .

فصرخت فى غيظ واحتقار :

ـ وهل خطر ببالك اننى سأبر بوعدى حقا ؟

فقال أشندن بهدوء :

ـ كلا . ولا أكتمك اننا لم ننزلك فى هذا الفندق المريح بدلا من حبسك فى أحد السجون المحلية حرصـا على راحتـك الشـخصية فحسب ، بل انه من الجـائز لى ان أصارحك الآن انك وان كنـت مطلقة الحرية فى الدخول والخروج كما تشائين ، الا انك لاتستطيعين الافلات من تونون كما لو كنت مقيدة بالسلاسل فى زنزانة سـجن . فمن البلاهة أن تضيعى وقتك فى كتابة خطابات لن تصـل الى حيث تريدين .

فصاحت فى وجهه بأقصى قوتها :

ـ يالك من خنزير قذر !

فلم يكترث وقال لها بهدوء حازم :

ـ ينبغى عليك أن تجلسى الان لتكتبى خطابا سيصل الى حيث نريد !

ـ كلا .. لن افعل شيئا أكثر مما فعلت . لن اكتب كلمة اخرى .

فقال اشندن :

ـ ولكنك جئت معى الى هنـا على اساس أنك ستفعلين اشـياء معينة .

فهزت كتفيها وقالت :

ـ ولكنى لن افعلها . انتهينا !

فاستعان أشندن بمزيد من الصبر وقال بلهجة لا تخفى فيها نبرة الوعيد :

ـ من الخير لك ان تفكرى فى الامر قليلا ؟

فصاحت وعيناها تومضان بالحقد :

ـ افكر قليلا ؟ وهل كنت اصنع شيئا سوى التفكير ؟ لقد فكرت . ولك ان تصنع بى ماتشاء . فلست ابالى .

ولم يفارق أشندن هدوءه وقال :

ـ جميل جدا . سأمنحك خمس دقائق مهلة تغيرين فيها رايك .

واخرج ساعته من جيبه واخذ ينظر اليها ثم جلس على حافة السرير وظل صامتا . فضاقت بذلك الصمت واخذت تقول :

ـ لقد اتعب أعصابى وجودى فى هذا الفندق . لماذا لم تودعونى غيابة السجن ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ ان هذه الحرية الظاهرية التى اتمتع بها هنا تكاد تطير صوابى . حرية فى الدخول والخروج ولكنى احس فى كل مكان وكل خطوة بالجواسيس فى أعقابى . ان ما تصنعونه بى فظيع ومشين ، مخجل ! الا خبرنى ما هى جريمتى ؟ انى اسألك ما جريرتى ؟ ماذا صنعت حتى استوجبت هذا كله ؟ ألست امرأة ؟ ان ماتطلبون منى أن اصنعه فظيع وشائن !

وكانت تتكلم بصوت مرتفع مشدوخ . وظلت تتكلم تباعا الى ان انتهت الدقائق الخمس واشندن ساكت لا ينطق بحرف . ثم نهض واقفا فصرخت فى وجهه :

ـ نعم اذهب ! انصرف عنى ؟

واخذت تقذفه بسباب بذىء لا يصلح للنشر ، فقال بهدوء :

ـ ولكنى ساعود !

وعندما خرج من الباب اغلقه بالمفتاح من خلفه . ثم نزل السلم مسرعا الى البهو فكتب رسالة على عجل ونادى ماسح الاحذية فارسله بها الى مركز الشرطة . ثم صعد السلم مرة اخرى .

وكانت جوليا لازارى قد القت بنفسها على الفـــراش وادارت وجهها الى جهة الحائط . وجسمها يهتز بنحيب هستيرى . ولم تظهر عليها اية علامة تفيد انها سمعته يدخل . فجلس أشـــندن فوق مقعد مواجه لمائدة الزينة واخذ ينظر الى الادوات المختلفة المتناثرة فوقها .

ولاحظ ان مواد الزينة التى كانت تســتعملها رخيصة وليســت مرتبة ولا نظيفة . فهناك بقع كثيرة من الاحمر والكريم البارد متناثرة على المائدة مع لطخ من الكحل الذى يستخدم للحواجب والزموش . اما دبابيس الشعر فكانت قبيحة الشكل مغطاة بطبقة دهنية .

والواقع ان الحجرة كلها كانت على شىء من الفوضى ، والهـواء فيها ثقيل بما يحمله من رائحة المطر الرخيص . وفكر اشـــندن فى مئات الحجرات التى لابد انها نزلت فيها بفنادق الدرجة الثالثـــة ، فى خلال حياة التجوال التى عاشتها من بلدة ريفية الى اخـــرى فى قطر بعد قطر . وتساءل عن اصل نشأتها . انها الان امرأة خشـــنة سوقية ، ولكن كيف تراها كانت ابان صباها ؟ انهـــا ليست من ذلك الطراز من النساء الذى ينتظر منه السير فى طريق الفن . لانه من الواضح انها لا تتمتع بأى شىء من المزايا التى تؤهلهـــا لذلك . ثم خطر بباله انها ربما كانت منحـدرة من اسرة لاعبى ســـيرك . ففى جميع انحاء العالم عائلات من لاعبى السيرك كان ابنـــاؤهم بالوراثة يحترفون الفن ، لانهم ولدوا فى رحابه . او لعلهـــا كانت عشـيقة احد الممثلين الصغار فادخلها حظيرة الرقص .

كم من الرجال عرفت فى حياتها طيلة تلك السنين ؟ ما بين زمـلاء فى التمثيل والاستعراض ووكلاء للفنانين ومديرى فرق ممن يرون من حقهم الطبيعى ان يعاشروها . ثم هناك التجـار واعيـان الارياف وابناء الاسرات الذين يرون من أوليات الوجاهة ان يحظـوا براقصات الفرق المتجولة التى تنزل بالبلدة ليلة او بضع ليال !

وهؤلاء كانوا فى نظـرها بالطبع هم مصـدر الايراد الذى تعيش منه ، فكانت تتقبلهم ببرود مهنى . ولكن بالنســـبة لهم لعلهـــا كانت

تمثل المغامرة والذكريات الساخنة التى يدخرها الشبان لسنوات الشيخوخة أو الاستقرار فى الحياة الزوجية .

وفجأة طرق الباب طارق فصاح أشندن على الفور :

ـ ادخل ؟

ووثبت جوليا لازارى جالسة فى فراشها وصاحت :

ـ من ؟

وظهر عليها الروع عندما رات المخبرين اللذين أحضراها من بولونيا وسلماها الى أشندن فى تونون يدخلان عليها فصرخت :

ـ أنتما ؟ ماذا تريدان ؟

فصاح احدهما فى صوت فظ يوحى بانه لن يتردد فى استخدام العنف :

ـ هيا . قومى .

وقال اشندن برقة ظاهرية :

ـ اخشى يامدام لازارى انه لا مفر لك من القيام .

ـ ولكن لماذا ؟

ـ لانى سأسلمك مرة اخرى لعناية هذين السيدين .

فصرخت جوليا :

ـ ولكن كيف أنهض ؟ قلت لك انى مريضة . لا استطيع الوقوف العلك تريد أن تقتلنى ؟

فلم يكترث اشندن وقال لها :

ـ ان لم ترتدى ثيابك بنفسك سنضطر الى أن نقوم بذلك نيابة عنك . واخشى اننا لن نستطيع ذلك بمهارة كافية . فمن الخير لك أن تقومى لانه لا فائدة من هذه المراوغة .

فسألته جوليا :

ـ ولكن الى اين تريد أن تاخذنى ؟

ـ سياخذاك ليعودا بك الى انجلترا .

ومد احد المخبرين يده فقبض على ذراعهـــا بعنف . فصرخت بغضب :

ـ اياك ان تلمسنى ! لا تقترب منى !

فقال له أشندن :

ـ دعها وشأنها . انا واثق انها ستثوب الى عقلها وتدرك انه من الخير لها ألا تثير المتاعب .

فقالت جوليا :

ـ سأرتدى ثيابى .

وجعل اشندن يرمقها وهى تخلع ثوب النوم وتلبس ثوبا للخروج ثم تحشر قدميها حشرا فى حذاء كان أصغر من حجمهما بشكل واضح . ثم رتبت شعرها . وبين حين وآخر كانت ترمق المخبرين بنظرات شذراء .

وتساءل أشندن فيما بينه وبين نفسه : ترى هل ستجد لديها الجسارة على المضى فى العناد والرفض ؟ . ان الكولونيل سيعتبره مغفلا غبيا اذا اخفق فى مهمته . ولكنه فى قرارة نفسه كان يتمنى لو انها وجدت فى نفسها الصلابة الكافية للمضى فى الرفض الى النهاية كى تنقذ حبيبها شندرالال .

واتجهت جوليا الى مائدة الزينة فوقف اشندن ليتيح لها الجلوس . وجلست أمام المرآة فوضعت على وجهها الكريم بسرعة ثم مسحته بمنشفة قذرة ووضعت المساحيق ثم وضعت الكحل فى عينيها ويداها ترتجفان وكان الرجال الثلاثة يرقبونها صامتين . ثم صبغت خديها وفمها بالاحمر ودست رأسها فى قبعة .

واشار اشندن الى احد المخبرين فأخرج من جيبه الاغلال الحديدية وتقدم نحوها ليصفد معصميها . ولما رأت الاصفاد تراجعت الى الوراء فى ذعر ، وفتحت ذراعيها على سعتهما وأخذت تصرخ :

ـ كلا كلا . لا اريد . الا هذا !

فقال المخبر فى فظاظة :

ـ هيا يافتاتى . لا تكونى بلهاء

واذا بها تأتى بحركة دهش لها اشندن غاية الدهشة ، فقد القت بذراعيها حول عنقه كأنها تلتمس منه الحماية ، وصاحت :

ـ لا تدعهما يأخذانى . ارحمنى ! لا استطيع ! لا استطيع !

وخلص اشندن نفسه من ذراعيها وقال :

ـ لا استطيع لك شيئا بكل اسف .

وقبض المخبر على معصميها ، واوشك ان يضعهما فى الاصفاد واذا بها تطلق صرخة عظيمة وتلقى بنفسها على الارض وتصيح :

ـ سأفعل ماتريد منى . سأفعل كل شىء !

واشار اشندن الى المخبرين فغادرا الحجرة . وتمهل بعدها برهة الى ان استعادت هدوءها . وكانت منبطحة على الارض تنتحب بكل عنف . فتقدم منها وانهضها على قدميها ثم أجلسها .

وقالت بين الشهيق :

ـ ماذا تريد منى ؟

ـ اريد منك ان تكتبى خطابا آخر الى شندرالال .

ـ ان راسى به دوامة ولن استطيع أن اكتب جملة واحدة . يجب ان تمهلنى بعض الوقت .

وتحير اشندن بين الرحمة والحكمة . ثم راى انه من الخير ان ينتهز فرصة فزعها الشديد كى تكتب الخطاب قبل ان تسترد شجاعتها وتعود الى التمرد والرفض .

ـ سأملى الخطاب عليك . ولكن يجب ان تكتبى ما أمليه عليك بالضبط .

فندت عنها زفرة محرقة ، ثم تناولت القلم والورق وجلست امامه الى منضدة الزينة وقالت :

ـ اذا فعلت ماتريد .. ونجحت خطتك . كيف لى أن اعلم انكم ستطلقون سراحى ؟

فقال لها اشندن :

ـ لقد وعدك الكولونيل بذلك . وثقى اننى سأنفذ تعليماته بحذافيرها واطلق سراحك متى وصل صاحبك الى هنا .

ـ لاشك اننى اكون اشد الناس غفلة اذا انا خنت حبيبى لم تلقون بى فى السجن بعدها .

فقال لها اشندن مترفقا :

ـ سأبين لك أعظم ضمان لصدق وعدنا .

ـ ماهو ؟

ـ انه لا اهمية نك عندنا شخصيا اطلاقا فيما عدا كونك طعما لاستدراج شندرالال . فلماذا نجشم انفسنا المتاعب والنفقات لاستضافتك فى السجن وحريتك لا ضرر منها لنا ؟

وفكرت فى كلامه لحظة ثم عاد اليها هدوءها وقالت بلهجة عملية :

ـ خبرنى ماذا تريدنى ان اكتب ؟

وتردد اشندن . لقد خيل اليه انه سيستطيع تقليد طريقتها فى كتابة رسائلها بسهولة . وهاهو ذا يجد الامر عسيرا . فلابد من اتقان اللهجة المناسبة وان يخلو الاسلوب من الثقافة واثارها البيانية . ولكن الموقف لابد له ايضا من لهجة بعيدة عن بساطة الحديث المادى . واخيرا جمع أمره وأملى عليها مااعتبره السهم الاخير فى كنانته للحصول على الفريسة .

الفصل العاشر

الفريسة

ـ اكتبى ..

« لم اكن اعلم اننى احببت جبانا رعديدا ... فلو انك كنت تحبنى حقا لما امكنك أن تتردد على هذه الصورة عندما طلبت منك أن تأتى ... « وضعى خطا تحت لما أمكنك » ... وقد وعدتك انه ليس هناك خطر محدق . فان كنت لا تحبنى فخيرا صنعت اذ لم تأت . لا تأت ! عد الى برلين حيث تشعر بالامان والطمأنينة . لقد سئمت هذه اللعبة . انا هنا وحيدة مريضة . أمرضنى انتظارك وازا امنى نفسى كل يوم انك ستأتى . فلو كنت تحبنى لما ترددت هكذا . لقد تبين لى الان انك لا تحبنى . نفسى سئمتك . وليس عندى مال . وهذا الفندق فظيع . ثم لم يعد هناك مايدعو لبقائى فيه ، وفى استطاعتى أن احصل على اتفاق للعمل فى باريس . ولى هناك صديق عرض على عروضا جديدة مغرية . وقد أضعت وقتا طويلا معك وبسببك ثم ها هى ذى النتيجة ! على كل حال قد انتهينا . ووداعا . واعلم انك لن تجد امراة تحبك كما احببتك انا . وانا الآن فى موقف لا استطيع معه ان ارفض اقتراح صديقى ، ولذا ارسلت اليه برقية بالموافقة على عروضه . وبمجرد وصول رده على برقيتى سأذهب الى باريس . وثق اننى لا الومك على شىء لانك فى الواقع لا تحبنى . وهى ليست غلطتك . ولكن يجب ايضا أن تراعى اننى اكون غاية فى الغباء لو ثابرت على اهدار حياتى ، وتضييع الفرص التى لا تتكرر . لان الشباب لا يدوم الى الابد . وداعا ... جوليا » .

ولما فرغ اشندن من الاملاء طلب منها الخطاب وقراه مرة اخرى

فلم يرض عنه كل الرضا . ولكنه كان أفضل ما يستطيع . ولاحظ ان الاملاء كان عجيبا جدا يصل الى حد الفحش فى الخطأ الهجائى . وأن الخط كخط طفلة . وما اكثر الكلمات التى شطبتها وكتبت غيرها عدة مرات وكان قد أملاها بعض العبارات بالفرنسية تقليدا لطريقتها . وقد سقطت دموعها مرتين أو ثلاثا على الصفحات فطمست معالم بعض الكلمات ..

وقال لها اشندن :

ـ الآن اتركك . وربما اتيح لى عندما نلتقى فى المرة القادمة أن اخبرك انك صرت طليقة السراح لتذهبى حيث تشائين . وفى هذه الحالة أحب ان اعرف اين تنوين الذهاب .

فقالت بطريقة آلية :

ـ الى اسبانيا .

فقال اشندن :

ـ وهو كذلك . سيكون كل شىء معدا لسفرك .

فلم تزد على أن هزت كتفيها . فتركها وانصرف .

***

ولم يعد امام اشندن ما يصنعه سوى ان ينتظر . وارسل رسولا الى لوزان بعد الظهر بالرسالة . وفى الصباح التالى ذهب الى رصيف الميناء ليستقبل الزورق القادم من لوزان .

وكانت هناك قاعة انتظار مجاورة لمكتب التذاكر . وهناك أمر المخبرين بالتربص وان يكونا على قدم الاستعداد . والمتبع عند وصول الزورق أن يتقدم الركاب فى صف فتفحص جوازات سفرهم قبل أن يسمح لهم بالنزول الى الشاطىء . فاذا جاء شندرالال وابرز جواز سفره ، ومن المرجح انه يسافر بجواز مزور صادر فى الغالب من دولة محايدة ، ففى هذه الحالة سيطلبون منه الانتظار ثم يستدعون اشندن ليتحقق من شخصيته . وعندئذ يتم القبض عليه .

وبكثير من توتر الأعصاب جعل اشندن يرقب الزورق وهو يدخل الميناء ثم شرع يتفحص وجوه الركاب واحدا بعد واحد ، ولكنه لم يعثر بينهم على احد يشبه ادنى شبه مسافرا من الهند .

شندرالال لم يحضر اذن ... لم يدر اشندن ماذا يفعل . لقد نعب ورقته الاخيرة . وكان عدد الركاب النازلين فى تونون لا يزيد على حفنة قليلة سرعان ما تفرقوا الى حال سبيلهم . وراح اشندن يتمشى فوق الرصيف بخطوات بطيئة ، ثم قال لفليكس الذى كان يفحص جوازات السفر :

ـ لقد فشلنا . والسيد الذى كنت أنتظر قدومه لم يحضر .

فغمز فليكس بعينه ، وقال :

ـ عندى خطاب يهمك كثيرا .

وقدم الى اشندن مظروفا عليه عنوان مدام لازارى . فعرف اشندن على الفور خط يد شندرالال . وقبل ان يفض المظروف لمح الزورق القادم من جنيف ووجهته لوزان . وهذا الزورق يصل الى تونون دائما كل صباح بعد وصول الزورق القادم من لوزان بعشرين دقيقة . وخطرت لاشندن فكرة ومضت فى نفسه كأنها بريق الالهام ، فقال لفليكس :

ـ أين الرجل الذى أحضر هذا الخطاب ؟

ـ انه هناك فى مكتب التذاكر .

فصاح به اشندن :

ـ اسرع واعطه الخطاب وقل له ان يعود الى الشخص الذى سلمه اياه فى لوزان .

ـ وماذا يقول له ؟

ـ يقول له انه حمل الرسالة الى السيدة ولكنها رفضت أن تتسلمها وطلبت منه أن يردها اليه . فاذا طلب منه ذلك الشخص ان يحمل خطابا آخر الى السيدة ، فعليه ان يقول له ان ذلك لا فائدة منه لان السيدة كانت بصدد حزم حقائبها والرحيل عن تونون .

وبعد أن تأكد من تلك الاجراءات خرج اشندن عائدا الى البيت الصغير القائم فوق التل .

***

كان موعد الزورق التالى الذى يمكن أن يصل عليه شندرا الساعة الخامسة تقريبا . وفى هذا الموعد بالذات كان لدى اشندن ارتباط سابق لمقابلة أحد عملائه الذين يعملون فى المانيا . فنبه فليكس

انى انه قد يتأخر فى الحضور الى الميناء بضع دقائق .

وعلى كل حال اذا حدث أن حضر شندرالال فمن السهل حجزه ولا ضرر من تأخره . فلا حاجة ماسة الى العجلة لان القطار الذى سيرحل فيه الهندى الى باريس لا يقوم من تونون الا بعد الساعة الثامنة .

وبعد أن انتهى اشندن من مقابلته مع العميل القادم من المانيا سار متئدا الى رصيف الميناء على شاطىء البحيرة . وكان الوقت لا يزال بعيد الغروب وفى السماء بصيص من نور فاستطاع ان يرى دخان الزورق البخارى وهو مقلع عائدا الى لوزان .

ومن غير أن يفكر وجد نفسه نهبا للقلق وأسرع فى خطاه . وفجأة رأى شخصا يجرى مقبلا نحوه ، وسرعان ما عرف فيه الرجل الذى حمل الخطاب الى شندرالال . واخذ الرجل يصيح به :

ـ اسرع اسرع ! انه هنا .

فقفز قلب اشندن فى صدره قفزة قوية وقال :

ـ اخيرا !!

وشرع يجرى باقصى سرعته . والرجل يجرى بجواره ويحدثه وهو يلهث بتفاصيل ماحدث عندما أعاد الخطاب مغلقا الى شندرالال:

ـ عندما وضعت الخطاب فى يد الهندى شحب وجهه شحوبا فظيعا . ولم اكن ياسيدى اعتقد أن رجلا داكن البشرة بهذه الصورة يمكن ان يبيض وجهه من اثر الشحوب هكذا . وجعل يقلب الخطاب فى يده كانه لا يستطيع أن يفهم ماذا جاء به ولماذا هو فى يده لا فى يدها . وانبثقت الدموع من عينيه وانهمرت مدرارا على خديه فكان المنظر فظيعا ومضحكا فى آن واحد . لانه رجل بدين كما تعلم ياسيدى . ثم تمتم بلغة لا افهمها . وما لبث أن سالنى بالفرنسية عن موعد قيام الزورق الى تونون . وبعد ذلك غادرته وذهبت الى الميناء . ولما ركبت الزورق لم أره بين الركاب . ونقبت عنه واخيرا وجدته منعزلا فى مكان وحده وقد أرخى قبعته فوق عينيه . وظل طوال الرحلة شاخص النظرات الى تونون .

وساله اشندن :

ـ واين هو الان ؟

ـ لقد سبقته فى النزول واخبرت المسيو فليكس فطلب منى أن اسرع للاتيان بك . فلا أدرى اين هو . واظنهم قابضين عليه الآن فى حجرة الانتظار .

وكان اشندن قد لهث ونال منه التعب عندما وصل الى الميناء . فاندفع داخلا الى قاعة الانتظار . وهناك وجد جماعة من الناس . وهم يتحدثون جميعا فى وقت واحد بأعلى أصواتهم ، ويلوحون بأيديهم بصورة جنونية ، متجمعين حول رجل ملقى على الارض .

وصاح اشندن :

ـ ماذا حدث ؟

فقال فليكس :

ـ انظر !

ونظر اشندن فاذا شندرالال ملقى هناك وعيناه جاحظتان والزبد متجمع فوق شفتيه ، وجسده متخشب ومتقلص بصورة فظيعة . لقد فارق الحياة .

وقال فليكس يشرح الامر :

ـ قتل نفسه . وارسلنا فى استدعاء الطبيب ولكن الموت كان اسرع **اليه منا** .

وسرت فى جسد اشندن قشعريرة فظيعة .

وجلية الامر ان الهندى عندما نزل من الزورق ، عرفه فليكس على الفور من الاوصاف التى لديه . وكان عدد الركاب النازلين فى تونون اربعة فقط. كان شندرالال الاخير بينهم . فتعمد فليكس التباطؤ غير المعقول فى فحص جوازات سفر الثلاثة الذين قبله . ثم تناول جواز سفر الهندى . وكان جوازا اسبانيا مستكملا لجميع الشروط الرسمية .

وبدأ فليكس يلقى على شندرالال الاسئلة المعهودة على حسب التعليمات ، ويسجل الاجوبة فى الاستمارة كما هو معتاد مع كل راكب . ولما انتهى من ذلك ولم يكن اشندن قد حضر ، رفع فليكس عينيه الى وجه الهندى وابتسم فى دماثة شديدة قائلا :

ـ ارجو أن تتفضل بالتوجه معى الى قاعة الانتظار لحظة واحدة ، لان هناك بضعة امور شكلية يجب استكمالها .

فسأله الهندى .

ـ وهل جواز سفرى ليس مستوفيا من أية ناحية ؟

ـ انه على مايرام . مجرد شكليات .

فبدأ التردد على شندرالال ، ثم تبع الموظف الى باب حجـرة الانتظار المقفل . وفتح فليكس له الباب بأدب وتنحى قائلا :

ـ تفضل بالدخول .

ودخل شندرالال ، فنهض المخبران واقفين .

ولابد ان شندرالال ارتاب منذ أول وهلة فى أنهما من الشرطة ، وادرك انه سقط فى فخ نصب له .

وقال له فليكس .

ـ اجلس ياسيدى . فهناك سؤال او سؤالان أحب أن أوجههما اليك .

فقال الهندى :

ـ الجو هنا شديد الحرارة . ولذا سأخلع معطفى ان سمحت لى بذلك .

وفعلا كانت المدفأة مشتعلة فى الحجرة فارتفعت الحرارة فيهـا كأنها فرن . وقال فليكس بكل لباقة :

ـ طبعا ياسيدى ...

وخلع الهندى معطفه بعد شىء من الجهد الظاهر ، ثم دار حول نفسه ليضعه فوق مقعد . وقبل أن يدركوا ماحدث راوه يترنح امام أعينهـم ويخر صريعـا على الارض . فأثناء خلع معطفه استطاع شندرالال ان يتجرع محتويات زجاجة صغيرة كانت لاتزال فى قبضة يده .

وقرب أشندن انفه من الزجاجة وشمها ، فوجد لها رائحة شبيهة برائحة اللوز . ووقف الجميع ينظرون الى القتيل واجمين .

واخيرا سال فليكس فى اضطراب :

ـ هل سيغضبون لانه انتحر قبل أن يستجوبوه ؟

فهز اشندن كتفيه وقال :

ـ سواء غضبوا او لم يغضبوا فانا لا ارى لك ذنبا . وحسبنا على كل حال انه لم يعد قادرا على الاستمرار فى الاضرار بمصالح الحلفاء.

ومن جهتى شخصيا اشعر بسرور لانه قتل نفسه بيده . فان فكرة اعدامه بيد اعدائه على سبيل الانتقام لم تكن تثلج صدرى ياصديقى

وفى هذه اللحظة دخل الطبيب وتحقق من الوفاة ثم قال لاشندن :

ـ سيانور البوتاسيوم .

وهز اشندن راسه جملة مرات ثم قال :

ـ سأذهب الآن لزيارة مدام لازارى . واذا وجدت حالتها العصبية منهارة ، واحتاجت للاقامة هنا يوما او يومين آخرين ريثما تستجمع شتات قواها فسأسمح لها بذلك . ولكن اذا ارادت ان ترحل الليلة فسيكون لها ماتريد طبعا . هل لك يامسيو فليكس ان تصدر الاوامر للمخبرين فى محطة السكة الحديدية كى يتركوها تمر ؟

فقال فليكس :

ـ بل سأكون بنفسى فى المحطة .

وشرع اشندن يصعد التل مرة اخرى نحو منزله المنعزل . وكان الليل قد ارخى سدوله . وكان الجو باردا صافيا والسماء خالية من السحب يزينها هلال كأنه خيط ابيض .

وقبل ان يذهب الى منزله عرج على الفندق ونظر الى اثاث البهو واللوحات السياحية المعلقة على الجدران فى اشمئزاز لم يشعر به من قبل . وصعد السلم وطرق الباب طرقة خفيفة ثم فتح باب حجرة جوليا .

وكانت جوليا جالسة امام مائدة زينتها تتطلع الى وجهها فى المرآة اما عن سأم او عن يأس . فقد كان واضحا انها لا تفعل شيئا .

وفى صفحة المرآة رات اشندن داخلا فتغير وجهها فجأة عندما وقع نظرها على وجهه ، وقفزت واقفة فى عنف حتى ان المقعد سقط على الارض .

وسمعها تصرخ صائحة :

ـ ماذا حدث ؟ لماذا انت شاحب الوجه هكذا ؟

ودارت على عقبيها وحملقت فيه ثم ارتسم الرعب على وجهها . وقالت لاهثة الانفاس بالفرنسية :

ـ قد وقع فى ايديكم !

فقال اشندن بصوت اجش :

ـ بل مات .

فصاحت فى فرح وحشى :

ـ مات ! لقد تناول السم اذن ! لقد سنحت له فرصة واتسع الوقت كى يفعل ذلك ، فافلت من أيديكم على كل حال .

فقال لها اشندن بدهشة :

ـ ماذا تعنين ؟ وكيف عرفت حكاية السم ؟

فضحكت فى سخرية وقالت :

ـ كان يحمل الزجاجة معه دائما ولا تفارقه . كان يقول باصرار ان الانجليز لن يظفروا به حيا مهما حدث .

وفكر اشندن برهة وشعر بالاعجاب لانها كتمت ذلك السر بحرص وعناية . وفطن الآن الى ان تلك الفكرة كان ينبغى ان تخطر له . واخيرا قال لها :

ـ انت الآن حرة تماما . فى وسعك أن تذهبى حيث تشائين ولن تقف فى سبيلك اية عقبة . هاهى ذى تذكرة سفرك كما وعدتك . وهاهو ذا جواز السفر . وها هى ذى النقود التى كانت فى حوزتك حينما القى القبض عليك .

وسكت قليلا ثم سألها :

ـ اتريدين أن تلقى نظرة اخيرة عليه ؟

فأجفلت وصاحت :

ـ كلا كلا !

فقال لها أشندن :

ـ لا : لا ضرورة لذلك حقا . ولكن خطربالى انك ربما عناك ان تلقى عليه نظرة أخيرة ...

لم تبك . وقدر اشندن انها استنفدت قبل هذه الصدمة انفعالاتها وطاقتها . واستطرد يقول لها :

ـ ستصل الليلة برقية الى الحدود الاسبانية وبها تعليمات الى سلطات الحدود بتسهيل مرورك . فان اردت قبول نصحى يحسن ان تغادرى الاراضى الفرنسية بأسرع ماتستطيعين .

ولم تقل شيئا . ظلت ساكنة . ولما كان لم يعد لدى اشندن مايقوله ، تأهب للانصراف وقال لها:

ـ يؤسفنى أننى كنت مضطرا لاستعمال الشدة معك . ويسرنى ان اسوأ ما فى متاعبك قد انتهى . واتمنى أن يمحو الزمن حـزنك الشديد ، بسبب موت صديقك .

ثم انحنى اشندن واتجه نحو الباب . ولكنها استوقفته قائلة :

ـ رويدك لحظة .

فالتفت نحوها متسائلا فقالت :

ـ هناك شيء واحد أحب أن اطلبه منك . واظن ان قلبك لا يخلو من جذوة رقة ...

فقال اشندن بكل اخلاص :

ـ ثقى اننى مستعد ان اصنع من أجلك كل ما استطيع .

فسألته فى هدوء تام :

ـ ماذا تراهم سيصنعون بأشيائه التى كان يحملها ؟

فظهرت الدهشة على وجه اشندن وقال لها :

ـ لا أدرى . ولكن لماذا تسألين ؟

وعندئذ قالت شيئا اذهل اشندن فوقف مبهوتا . قالت آخـر ماكان يتوقع أن يسمعه منها :

ـ ان ساعة معصمه كانت هدية منى فى عيد الميلاد الاخير . وقد كلفتنى اثنى عشر جنيها . وأمامى ايام قاسية . فهـل لك فى أن تساعدنى على استردادها ... ؟

الفصل الحادى عشر

جوستاف

عندما قرر الكولونيل ارسال أشندن الى سويسرا ليشرف على مجموعة من الجواسيس الذين يعملون لحساب انجلترا من هناك ، احب أن يطلعه على نموذج للتقارير التى يتطلب منه الحصول على مثلها . ولذا سلمه مجموعة من الوثائق المكتوبة على الآلة الكاتبة ، صادرة من رجل يعرف فى ادارة المخابرات تحت اسم جوستاف ، وهو اسم مستعار بالطبع . وقال الكولونيل :

ـ انه أفضل جاسوس يعمل لحسابنا هناك . والمعلومات التى يزودنا بها كاملة باستمرار ، وشاملة لجميع التفاصيل ، ومناسبة لظروفها واوقاتها . وأريد منك أن تمير تقارير هذا الرجل أقصى عنايتك . وجوستاف بطبيعة الحال شخص ذكى بارع جدا بصورة خارقة ، ولكن هذا لا يمنع من حصولنا على تقارير تضاهيها فى الجودة والدقة من العملاء الآخرين . وذلك لا يتطلب سوى ان تشرح لهم بالضبط ماذا نريد منهم . وهذا الشرح هو مهمتك بصفتك المشرف المباشر عليهم . والاساس أو المستوى الذى تطالبهم بتحقيقه فى تقاريرهم هو مستوى تقارير جوستاف هذه !

وجوستاف يقيم بصفة أساسية فى مدينة بال . وهو مندوب شركة سويسرية لها فروع فى المدن الالمانية الهامة مثل فرانكفورت ومانهايم وكولونيا . وبسبب عمله فى الشركة كان متاحا له أن يذهب الى المانيا ويعود منها بصورة دورية وبشكل طبيعى خال من كل مجازفة .

وكانت رحلاته فى منطقة الراين الخطيرة . ومن هناك كان يجمع المعلومات عن تحركات الجيوش ، وصناعة الذخائر والأسلحة ، وعن

الحالة المعنوية للشعب . وهذه مسألة كان يهتم بها الكولونيل اهتماما فائقا . فضلا عن المسائل الاخرى التى كان الحلفاء يطلبون المعلومات المستفيضة عنها .

وكانت خطاباته الكثيرة الى زوجته فى بال اثناء رحلاته داخل المانيا تخفى بين سطورها شفرة خاصة . وبمجرد تسلمها لتلك الخطابات ، كانت ترسلها اولا بأول الى اشندن حيث يقيم فى جنيف . فيستخرج من هذه الخطابات الحقائق الهامة ويبلغها الى الجهات المختصة فى الحال .

ومرة كل شهرين كان جوستاف يعود الى بيته ووطنه ، ويعد تقريرا من تلك التقارير التى اعتبرها الكولونيل انموذجا ينبغى ان ينسج على منواله الجواسيس الآخرون فى ذلك القطاع بالذات من ادارة المخابرات .

كان الرؤساء راضين عن جوستاف . وكانت الاسباب مهيأة كى يرضى جوستاف عن رؤسائه . لان خدماته كانت مفيدة ونافعة ، بحيث كان يتقاضى عنها لا اجرا اعلى من اجور الجواسيس الآخرين فحسب ، بل كان يتقاضى ايضا بين الحين والحين مكافآت سخية على خدمات لها امتياز خاص .

واستمر الحال على هذا المنوال اكثر من سنة ثم حدث شيء ما اثار ريبة الكولونيل السريعة . فقد كان الكولونيل رجلا يتصف بيقظة مدهشة ، لا ترجع الى قوة العقل فى الغالب ، بل الى قوة غريزية خاصة فيه . وبوحى هذه الغريزة شعر فجأة ان هناك شيئا على غير مايرام . ولم يفض بشيء محدد عن دواعى هذه الريبة الى اشندن . لان الكولونيل كان من أقدر الناس على كتمان خواطرهم الخاصة مهما كان نوعها ، ولكنه طلب اليه ان يذهب الى بال ـ وكان جوستاف فى ذلك الحين بألمانيا ـ وان يتحدث الى زوجة جوستاف . وترك لاشندن حرية التصرف فى ادارة الحديث معها من غير تحديد .

ولما وصل اشندن الى بال ترك حقيبته فى المحطة لانه لم يكن يدرى هل سيبقى فى المدينة ام يرحل عنها فى نفس اليوم . واستقل الترام الى راس الشارع الذى يسكن فيه جوستاف . ولما نزل من الترام القى نظرة سريعة ليتبين هل هناك من يتبعه ام لا ، ثم اتجه الى البيت الذى يقصده .

وكان البيت عبارة عن عمارة سكنية توحى اليك بفاقة يسترها التعفف . وغلب على ظن اشندن أن السكان من الكتبة وصغار التجار وأصحاب الحرف . ومن داخل باب العمارة مباشرة وجد دكان اسكاف . فوقف عنده اشندن وسأله بلغته الالمانية المتعثرة شيئا ما:

ـ هل الهر جراباو يسكن هنا ؟

فأجابه الاسكاف على الفور :

ـ نعم . وقد رأيته يصعد الى مسكنه منذ دقائق قليلة . ستجده هناك .

وأخذ اشندن بهذا القول ، لانه تلقى فى اليوم السابق مباشرة من زوجة جوستاف خطابا مرسلا من زوجها اليها من مدينة مانهايم ، يتضمن بطريقة شفرته الخاصة أرقام فرق معينة فى الجيش الالمانى قال أنها عبرت نهر الراين .

ورأى اشندن من الغفلة ان يسأل الاسكاف ذلك السؤال الذى قفز الى شفتيه . واكتفى بأن شكر الرجل وصعد الى الطابق الثالث حيث كان يعلم من قبل ان جوستاف يسكن جناحا منه .

ودق اشندن الجرس وسمع رنينه فى الداخل ، وبعد لحظة فتح الباب رجل قصير القامة ذو راس حليق مستدير ، وعلى عينيه نظارة ، وفى قدميه خف مما يلبس فى المنزل .

وسأله اشندن :

ـ الهر جراباو ؟

فقال جوستاف :

ـ فى خدمتك .

ـ هل تسمح لى بالدخول ؟

وكان جوستاف واقفا وظهره الى الضوء فلم يستطع اشندن ان يتبين نظرته وسحنته عندئذ ، ولكنه شعر أن الرجل تردد ترددا يسيرا ، فنطق اشندن باسمه السرى الذى يتلقى بمقتضاه خطابات جوستاف من المانيا . فقال على الفور :

ـ ادخل . ادخل . انى سعيد جدا بلقائك .

وقاده جوستاف الى غرفة صغيرة مزدحمة ثقيلة الهواء ، أثاثها

من خشب البلوط الضخم المنقوش . ورأى اشـــندن فوق المائدة الكبيرة المغطاة بمفرش من القطيفة الخضراء آلة كاتبة . ويظهـر ان جوستاف كان منهمكا فى تدبيج تقرير من تقاريره الثمينة .

وعند النافذة المفتوحة جلست امراة ترتق الجوارب . وباشـارة من جوستاف نهضت وجمعت الجوارب وانصرفت . فأدرك اشندن انه ازعج هدوء اجتماع عائلى نموذجى فى صفائه . وقال جوستاف :

ـ ارجو أن تتفضل بالجلوس . يالله من حظ سعيد ان تجـدنى الآن فى بال . فانا منذ مدة طويلة جدا مشوق الى التعرف بك وقد وصلت فى هذه الدقيقة من المانيا .

واشار الى الاوراق والآلة الكاتبة ثم استطرد :

ـ واعتقد انك ستسر كثيرا من الانباء التى اتيت بها . فعندى هذه المرة معلومات قيمة للغاية ...

وضحك ثم قال :

ـ والانسان لا يسوؤه طبعا ان يحصل على مكافأة ...

وكان ظريفا جدا وودودا . ولكن اشندن احس بنبرة تكلف . وكان جوستاف يتكلم وهو مثبت عينيه الباسمتين من خلال منظـاره على وجه اشندن فى يقظة يشوبها شيء خفيف جدا من القلق ... وقال له اشندن :

ـ لابد انك اسرعت جدا فى رحلتك حتى انك وصلت هنا بعد وصول خطابك بساعات قليلة !

ـ هذا جائز جدا . ومن الواجب أن اخبرك ان الالمان يرتابون فى تسرب المعلومات العسكرية عن طريق المراسلات التجارية العادية . ولذا قرروا ان يستبقوا جميع الرسائل البريدية عند الحـدود لمدة ثمان واربعين ساعة .

فابتسم اشندن وقال بكل ظرف :

ـ آه . لعلك لهذا السبب اتخذت حيطتك عنـد تاريخ خطـابك فوضعت عليه تاريخا متأخرا عن يوم الارسال بثمان واربعين ساعة ؟

ـ هل فعلت ذلك حقا ؟ ما اشد غبائى . لابد اننى اشـكل على تاريخ اليوم .

فنظر اشندن الى جوستاف وهو يبتسم ، فهذا عذر واه جدا .

فجوستاف رجل اعمال وهو لذلك يعرف تمام المعرفة اهمية التاريخ الدقيق فى عمله التجارى ، والاهمية القصوى فى هذه المهام السرية التى تتعلق بالمخابرات . فمن العناصر الجوهرية لدى القيادةأن تعرف بالضبط اليوم الذى وقعت فيه الاحداث المشار اليها فى التقارير والخطابات .

وقال اشندن لجوستاف :

ـ دعنى القى نظرة على جواز سفرك .

ـ ولماذا تريد أن ترى جواز سفرى ؟

ـ أريد أن ارى تاريخ ذهابك الى المانيا وتاريخ خروجك منها .

ـ ولكن هل تتصور ان جميع سفرياتى من والى المانيا مسجلة فى جواز سفرى ؟

ـ هذا هو المفروض .

ـ ان لى وسائلى الخاصة فى اجتياز الحدود بصفة غير رسمية .

وكان اشندن على علم دقيق بهذه المسألة . فهو يعرف ان كلا من الجانب الالمانى والجانب السويسرى يحرس الحدود المشتركة فى دقة فائقة لا تعرف التساهل . ولذلك سأل جوستاف :

ـ أحقا ؟ ولماذا لا تجتاز الحدود الالمانية السويسرية بالوسائل الرسمية المعتادة ؟ اننا الحقناك بالعمل لان تمثيلك لشركة سويسرية تورد سلعا ضرورية للاسواق الالمانية ييسر لك السفر الى المانيا ذهابا وايابا بصورة طبيعية رسمية لا تثير الشك . وقد أفهم أن تجتاز خطوط الحراس الالمان بتواطؤ خاص . ولكن كيف يشمل هذا التواطؤ الحراس السويسريين ؟

فارتسمت على وجه جوستاف نظرة استنكار هائلة ، وقال :

ـ لست افهمك ؟ هل تريد ان تلمح الى اننى قد اكون فى خدمة الالمان ؟ انى اقسم لك بشرفى .. لن اسمح لاحد بتجريح استقامتى !

فقال اشندن بهدوء :

ـ انك ان تكون الرجل الوحيد الذى يقبض اموالا من المعسكرين المتحاربين معا ، ولا يقدم معلومات ذات قيمة الى هؤلاء ولا اولئك .

ـ هل تريد أن تقول ان معلوماتى لا قيمة لها ؟ فلماذا اذن اعطيتمونى من تلقاء انفسكم مكافآت لم يظفر بها عميل آخر من عملائكم ؟ ان

الكولونيل نفسه كثيرا ما أعرب عن منتهى الارتياح الى خدماتى .

فقال له اشندن فى صبر وليونة :

ـ اسمع ياصاحبى ! لا تحاول أن تتعاظم . ان كنت لا تريد ان تطلعنى على جواز سفرك فلن الح عليك فى طلبه . ولكن هل تظن اننا نترك المعلومات التى يمدنا بها عملاؤنا من غير مضاهاة او تمحيص ؟ واننا لا نتعقب تحركاتهم بوسائلنا الخاصة ؟ مهما كانت النكتة جيدة فلا يمكن أن يستمر نجاحها اذا كررها صاحبها مرات عديدة .

وكان اشندن على شىء من الحذق فى لعب البوكر فقرر ان « يبلفه » :

ـ لدينا معلومات تفيد انك لم تذهب الى المانيا منذ التحقت بخدمة المخابرات الانجليزية ولكنك كنت تجلس هنا وادعا مطمئنا فى بيتك . وأن جميع تقريراتك البديعة مستمدة من مخيلتك الخصبة .

ونظر جوستاف الى اشندن فلم يتبين فى ملامحه سوى التسامح والطيبة والميل للدعابة . فانفرجت أسارير جوستاف ، وهز كتفيه وقال :

ـ وهل كنت تظننى من الحماقة بحيث اجازف بحياتى فى سبيل خمسين جنيها فى الشهر ؟ انا احب زوجتى !

فانفجر أشندن ضاحكا وقال :

ـ تهنئتى الحارة لك على براعتك وخيالك . فما كل انسان يستطيع أن يزهو بتمكنه من استغفال مخابراتنا السرية أكثر من سنة !

ـ لقد سنحت لى فرصة كسب نقود من غير صعوبة . وكانت الشركة قد توقفت عن ارسالى الى المانيا منذ بداية الحرب . أما المعلومات فكنت اتسقط بعضها من المندوبين التجاريين الآخرين وهم أصدقائى . وكنت افتح اذنى جيدا فى حانات البيرة والمطاعم واطالع الصحف الالمانية التى تأتى الى هنا يوميا . وكنت أجد متعة عظيمة فى تحرير تلك التقارير والرسائل .

ـ بغير شك انها تسلية عظيمة ؟

ـ والآن ماذا ستصنع ؟

ـ لا شىء . وماذا نستطيع أن نصنع ؟ ولا اظنك تخال اننا سنستمر فى دفع مرتبك الشهرى ؟

ـ كلا بالطبع .

ـ وبهذه المناسبة هل اكون فضوليا لو سألتك ان كنت قد لعبت نفس اللعبة على الالمان ؟

فصاح جوستاف باستهجان وحماسة :

ـ كلا . كيف خطر ببالك هذا الفرض الفظيع ؟ ان عواطفى كلها فى جانب الحلفاء .

ـ وما المانع ؟ اموال الالمان كثيرة جدا وليس هناك اى سبب يحول بينك وبين اقتناص ما تريد منهم . وسنقدم لك بين حين وحين معلومات ستجد الالمان مستعدين للحصول عليها .

ـ كلا . الالمان قوم عصبيون فيهم عنف ، ومن الخطر ان يهزل الانسان معهم .

ـ هذا يدل على انك رجل ذكى جدا . واعلم اننا وان أوقفنا مرتبك الشهرى الا اننا على استعداد تام لدفع مكافآت شخصية على اى اخبار حقيقية نافعة لنا . ولكن بعد التحقيق منها بوسائلنا الخاصة .

ـ سافكر فى هذا الموضوع .

واشعل اشندن سيجارة واستغرق فى التفكير قليلا ثم قال :

ـ الك الفان من الفرنكات السويسرية ان استطعت ان تخبرنى بما يفعله الالمان عن طريق جاسوس لهم يقيم فى لوسرن ، وهو انجليزى يدعى جرانتلى كابيور .

فقال جوستاف بعد لحظة صمت :

ـ سمعت هذا الاسم . كم ستبقى هنا فى بال ؟

ـ سابقى الوقت الضرورى . ساستأجر حجرة فى الفندق واخبرك برقمها .. فاذا احتجت الى اخبارى بشىء فى هذا الشأن ستجدنى دائما فى حجرتى فى الساعة التاسعة صباح كل يوم وفى الساعة السابعة مساء كل ليلة .

فقال جوستاف بحذر :

ـ لا استطيع ان اجازف بالحضور الى الفندق . ولكنى استطيع ان اكتب اليك بما اريد .

ـ وهو كذلك .

ونهض اشـــندن واقفـا لينصرف وصحبه جوستاف الى باب مسكنه . وقال لاشندن وهو يشد على يده مودعا :

ـ اننا نفترق صديقين اليس كذلك ؟

ـ طبعا طبعا . وستظل تقاريرك فى محفوظاتنا نموذجا لما ينبغى أن يكون عليه التقرير الجيد .

***

وقضى اشندن يومين او ثلاثة فى النزهة ومشاهدة معالم بال . ولكن لم ترق له هذه المناظر . فكان يقضى ساعات طويلة فى المكتبات يقلب صفحات كتب كان يحب أن يقرأها لو أن مدى العمر ألف سنة !

وذات مرة راى جوستاف فى الشارع فتجاهل كل منهما صاحبه وفى اليوم الرابع وصله خطاب مع قهوة الصباح . وكان المظـروف يحمل اسم مؤسسة تجارية لا يعرفها ، وبداخله ورقة مكتوبة على الآلة الكاتبة بغير عنوان وبغير امضاء . وابتسم اشندن لان جوستاف لا يعلم فيما يبدو انه يمكن مضاهاة خطوط الآلة الكاتبة مثل مضاهاة الخطوط اليدوية تماما .

وبعد أن فرغ من تلاوة الخطاب مرتين بعناية أحرقه بعود ثقاب ثم وضع الرماد فى حوض الغسيل . وحزم بعد ذلك حقائبه وركب اول قطار قاصدا برن .

ومن برن ارسل الى الكولونيل برقية بالشفرة عن طريق السفارة الانجليزية . وبعد يومين جاءه رسول من السفارة فى حجرة نومه بالفندق ، وأبلغه تعليمات شفوية فى ساعة متأخرة جدا من الليل حتى لا تكون ممرات الفندق مزدحمة . وبناء على هذه التعليمات سافر اشندن بعد اربع وعشرين ساعة بطريق ملتوية قاصدا مدينة لوسرن السويسرية .

الفصل الثانى عشر

الخائن

استأجر أشندن حجرة فى فندق معين صدرت اليه التعليمات المشددة أن ينزل فيه بالذات بمجرد وصوله الى مدينة لوسرن . وبعد أن نفذ أشندن هذه الخطوة ، غادر الفندق ، وكان اليوم رائع الطقس،من اوائل شهر أغسطس ، والشمس مشرقة والسماءصافية.

ولم يكن قد زار لوسرن منذ كان صبيا حديث السن ، فلم يبق فى ذاكرته منها الا صورة غامضة لقنطرة مسقوفة ولتمثال من الصخر يمثل أسدا ، ولكنيسة جلس فيها ساعة من الزمن وقد استولى عليه السأم الممزوج بالرهبة وهو يستمع الى عزف مؤثر على الارغن . فانطلق يجوس خلال المدينة ليجدد مابهت من تلك الذكريات القديمة ، وليستمتع بالرياضة فى ذلك الجو الدافىء .

وكانت لوسرن فى مدة الحرب خالية من الزوار والغرباء والاجانب كأنما استعادت عزلتها وهدوءها منذ كانت سويسرا دولة جبلية يرتادها السائحون من مشارق الارض ومغاربها للنزهة والاستجمام.

كانت الفنادق مغلقة والشوارع خالية ، والزوارق ذات المجاديف المعروضة للايجار بالساعة تتأرجح فى تراخ عند شط البحيرة وقد سدت الشاطىء تطلب من يستأجرها . والطرق الواسعة المشجرة التى تحف بالبحيرة لا ترى فيها سوى سويسريين يمشون جادين ، وكأنهم يحتفظون بحيادهم حتى فى نزهتهم على الاقدام !

وشعر أشندن بالاعياء من هذه الوحدة الموحشة فجلس فوق مقعد حجرى مواجه للماء ، وراح يتطلع الى المنظر الذى أمامه ، فوجده على جماله لا يخلو من سخف . فالماء شديد الزرقة ، والجبال من وراء البحيرة مثقلة بثلوج ناصعة البياض ، فكأنما جمال المنظر

يصدم العين ويلطم المحيا . وذكرته لوسرن فى تلك الساعة بتلك الازهار الصناعية المصنوعة من الشمع ، المعروضة تحت نواقيس نظيفة لامعة من الزجاج فى صالون انيق خال من الجالسين !

ومهما يكن من شىء فقد كان عازما على الاستمتاع بالطبيعة ما ظل الجو بديعا مشمسا . فهو لم يكن يرى اى تعارض على الاطلاق بين امتاع نفسه والقيام بخدمة بلاده . وكان فى جيبه جواز سفر جديد تحت اسم مستعار ، فأحس احساسا طريفا بأن له شخصية جديدة . وساعد ذلك على تسليته . فهو ليس الان اشندن وانما هو مخلوق خلقه الكولونيل . اختراع مستحدث تمخضت عنه مخيلة جندى . .

ونهض اشندن وتهادى متجها نحو الفندق . وكان هذا الفندق من الفنادق الالمانية الصغيرة ، ويعتبر من فنادق الدرجة الثانية ، ولكنه نظيف كل النظافة ، وحجرة النوم التى استأجرها تطل على منظر بديع ، واثاثها من خشب الشربين المطلى بقشرة لامعة . ولو كان الجو رطبا باردا ، لكانت الحجرة كئيبة اما فى هذا الجو الدافىء المشمس فهى مريحة للنفس باعثة على المرح . . .

وفى بهو ذلك الفندق موائد صغيرة متناثرة جلس الى احداها وطلب زجاجة بيرة . وكانت مديرة الفندق ، وهى زوجة صاحبه ، متشوقة لمعرفة السبب الذى حدا بهذا الانجليزى للحضور فى هذا الموسم الميت الى لوسرن لقضاء بضعة أيام . وكان اشندن مستعدا بل ميالا لاشباع فضولها . فأخبرها انه أبل اخيرا من اصابة شديدة بحمى التيفويد ، ونصحه الطبيب بقضاء فترة النقاهة فى هذا الفصل البديع من السنة بمدينة لوسرن ، كى ينعم بجمال الطقس والهدوء البعيد عن ضجة الزحام ومتاعب الحرب . واخبرها أيضا أنه كان موظفا فى ادارة الرقابة على الانباء بلندن ، ولذا انتهز الفرصة لعل اقامته فى لوسرن فى فندق المانى تساعده على محو الصدأ عن لغته الالمانية .

وطلب منها عرضا ان ترشح له معلما المانيا . وكانت ربة الفندق سيدة سويسرية شقراء ضخمة ، ذات وجه بشوش ، وفيها ميل للثرثرة . فأيقن اشندن انها ستذيع ما افضى اليها به من معلومات .

ورأى أنه صار من حقه الطبيعى ، بعد ان اشبع فضولها بالاجابة عن اسئلتها الكثيرة المتلاحقة ، أن يوجه اليها بضعة اسئلة . ووجد لديها ميلا للافاضة فى موضوع الحرب التى جعلت فندقها خاليا تقريبا ، مع انه فى مثل هذا الشهر من السنوات السابقة للحرب ، كان الفندق يكتظ بالنزلاء بحيث يقتضى الامر البحث عن غرف لهم فى البيوت المجاورة ... وذكرت له أن الكثيرين يأتون لتناول وجبات الطعام فى مطعم الفندق ، ولكن لايقيم لديها بصفة دائمة الا مجموعتان من الناس ، احداهما مكونة من زوجين ايرلنديين يقيمان طول السنة فى فيفاى ولكنهما يقضيان دائما شهور الصيف فى لوسرن . والمجموعة الاخرى عبارة عن رجل انجليزى وزوجته . وهذه الزوجة ألمانية ولذا اضطر الزوجان فى مدة الحرب للاقامة فى بلد محايد ..

وكان اشندن حريصا على الا يظهر اقل فضول بخصوص هذا الانجليزى وزوجته الالمانية ، لانه عرف من الوصف ان هذا الرجل هو جرانتلى كايبور ضالته المنشودة .. ولكن ربة الفندق أخبرته من تلقاء نفسها أن الزوجين يقضيان معظم النهار فى التجول بين الجبال ، لان الهر كايبور عالم فى النبات ، وله اهتمام عظيم بالازهار البرية فى هذا الاقليم . وزوجته امرأة لطيفة للغاية شديدة الحساسية نحو مركزها الدقيق ، وما تسببه جنسيتها الالمانية من المتاعب لزوجها . ولكن بطبيعة الحال لا يمكن ان تدوم الحرب الى الابد ياسيدى ...

وانصرفت ربة الفندق لبعض شأنها وصعد اشندن الى حجرته . وكان موعد العشاء فى السناعة السابعة ، بيد أن اشندن كان حريصا على النزول الى قاعة الطعام قبل جميع الناس ، كى يستطيع استعراض وجوه جميع من يتناولون الطعام فى لحظة دخولهم الى القاعة . ولذا نزل بمجرد سماع الجرس الذى يدعو الناس الى الطعام .

وكانت القاعة خالية من كل زخرف ، عاطلة من مباهج الترف ، جدرانها بيضاء ناصعة ، وفوق كل مائدة من الموائد الصغيرة باقة من الزهر . فكان كل شىء على الجملة نظيفا جدا وأنيقا جدا ، ولكنه يوحى بسوء طعم الاكل الذى سيقدم فى هذا الجو . وفكر

اشندن فى ان يعوض نفسه عن ذلك بطلب زجاجة من احسن انواع نبيذ الراين ، ولكنه لم يشأ ان يجازف بلفت النظر الى شخصه بهذا الاسراف بعد أن راى فوق ثلاث موائد انصاف زجاجات من النبيذ الرخيص ، وادرك أن زملاءه يشربون بتقتير شديد على انفسهم ، ولذا اكتفى بطلب كأس كبيرة من البيرة .

ودخل القاعة بضعة أشخاص كان واضحا انهم سويسريون جلس كل واحد منهم الى مائدته الصغيرة وفتحوا الصحف أمامهم وجعلوا يقرءون اثناء تناول الحساء ، وبعد ذلك دخل رجل طويل القامة متقدم جدا فى السن ، له شعر أبيض كالثلج ، وشارب أبيض متهدل ، ومعه سيدة عجوز قصيرة بيضاء الشعر ترتدى السواد . فادرك اشندن انهما الكولونيل الايرلندى وزوجته اللذان حدثته عنهما ربة الفندق .

وجلس الزوجان ، وصب الكولونيل لامراته كوبا من النبيذ ، ثم صب لنفسه كوبا آخر ثم انتظرا فى سكون الى ان قدمت اليهما الخادمة الريفية ، الممتلئة القد والوجه ، وجبة الطعام .

واخيرا وصل الشخصان اللذان كان اشندن فى انتظار قدومهما . وكان اشندن يتظاهر جهد استطاعته بقراءة كتاب المانى . وبمجهود شديد فى ضبط نفسه ، سمح لنفسه أن يرفع عينيه مدة لحظة واحدة عند دخولهما ، ثم عاد الى الكتاب الالمانى المفتوح امامه .

واظهرته لمحته هذه على رجل فى نحو الخامسة والاربعين ، له شعر قصير اسود لا يخلو من التجاعيد تتخلله شعرات بيضاء ، متوسط الطول ، ولكنه يميل للبدانة ، وله وجه عريض أحمر حليق . يرتدى بذلة رمادية وقميصا ذا ياقة واسعة مفتوحة . وكان يتقدم زوجته فى السير . ولم ير منها اشندن الا ما اشعره انها امراة المانية غير محبة للظهور ، يعلو ثيابها غبار كثير .

وجلس جرانتلى كايبور الى مائدته وشرع يشرح للخادمة بصوت مرتفع كيف انهما مشيا مسافات طويلة ، وانهما صعدا جبلا ما لم تكن لاسمه اهمية لدى اشندن ولكن هذا الاسم اثار لدى الخادمة الدهشة والحماسة .

وبعد ذلك قال كايبور بلهجة المانية طلقة تشوبها لكنة انجليزية

واضحة ، أنهما تأخرا كثيرا ، ولذا لم يتسع الوقت أمامهما كى يستحما ويبدلا ثيابهما واكتفيا بغسل أيديهما ، وكان صوته فى الكلام رنانا ولهجته مرحة :

ـ هيا احضرى طعامنا بسرعة ، فنحن فى شدة الجوع . واحضرى بيرة . هاتى ثلاث زجاجات كبيرة . رباه ما اشد ظمئى !

ويبدو عليه أنه رجل يتمتع بحيوية مفرطة ، فأضفى دخوله على تلك القاعة الراكدة الكئيبة المفرطة النظافة جوا بعث فيها الحياة . وشرع يتحدث الى زوجته بالانجليزية بصوت يستطيع ان يسمعه جميع الموجودين . ولكنها سرعان ما قاطعته بملاحظة افضت بها اليه فى صوت خافت .

وكف كايبور عن الكلام وشعر أشندن ان عينيه تتجهان الى ناحيته . ان المسز كايبور فطنت الى وجود شخص غريب فوجهت نظر زوجها الى ذلك . وقلب أشندن صفحة الكتاب الذى كان يتظاهر بقراءته ، ولكنه أحس أن نظرة كايبور مثبتة عليه بالحاح شديد .

ولما كلم كايبور زوجته بعد ذلك كان صوته منخفضا جدا حتى أن أشندن لم يستطع ان يسمع بأية لغة من اللغتين كان يخاطبها . . وعندما جاءتهما الخادمة بالخساء سألها كايبور سؤالا بصوت منخفض أيضا . وكان واضحا أنه يسألها عن أشندن وما عساه يكون . ولم تلتقط اذن أشندن المرهفة من أجابة الخادمة سوى كلمة « انجليزى » .

وفرغ شخص او شخصان من عشائهما وانصرفا . ثم نهض الكولونيل الايرلندى العجوز وزوجته العجوز عن مائدتهما . وتنحى الكولونيل كى يفسح لزوجته الطريق . ان هذين الزوجين اكلا باناء من غير ان يتبادلا كلمة واحدة . ومشت الزوجة على مهل الى الباب . أما الكولونيل فوقف يلقى كلمة الى سويسرى من الموجودين لعله محام او سوثق عقود . فلما وصلت الزوجة الى الباب وقفت كأنها نعجة مسالمة فى انتظار زوجها كى يفتح لها الباب . وأدرك اشندن من هذا المسلك أنها لم تفتح فى حياتها الباب لنفسها . وبعد

دقيقة جاء الكولونيل العجوز الى الباب ففتحه ومرقت منه وهو فى اثرها .

واغراه هذا المنظر فاسترسل فى تصور حياتهما معـا ، وبدأ فى بناء الحوادث والشخصيات . ولكنه لم يلبث أن رد نفسـه بحـزم عن الاسترسال فى ترف الخلق ، واستأنف تناول الطعام .

ولما خـرج من البهو ، راى اشـندن كلبا من نوع البول تيرير مربوطا الى فائمة احدى المناضد . فلما مر به مد يده بصـورة آلية كى يداعب اذنى الكلب المتدليتين الناعمتين . وكانت ربة الفنـدق واقفة اسفل السلم ، فسألها اشندن :

ـ لمن هذا الحيوان الجميل ؟

فقالت ربة الفندق فى حماسة :

ـ انه يخص الهر كايبور . واسـمه فريتزى . والهر كايبـور يقول ان نسب فريتزى اعرق بكثير من سلسلة نسب ملك انجلترا !

وجعل فريتزى يتمسح بساق اشـندن ويتحسس بطرف انفه الرطب راحة يده مسرورا بملاطفته .

وصعد اشندن الى حجرته كى يأتى بقبعته ، ولما نزل راى كايبور واقفا عند مدخل الفندق يتحدث الى ربته . ومن الصمت المفاجىء الذى ساد ادرك أن كايبور كان يسأل السيدة عنه .

ولما مر بينهما الى الشارع راى بطرف عينيه ان كايبور ينظر اليه نظرة ارتياب ، واذ بذلك الوجه الضاحك وقد صار آية على الدهاء .

وتركه اشندن واستأنف مسيره الى ان وجد حانة ذات شـرفة يستطيع أن يتناول فيها قهوته فى الهواء الطلق . وبعد القهوة قرر أن يعوض نفسه عن زجاجة البيرة التى تجرعها على مضض بدافع من الواجب على مائدة الغداء ، فطلب افخر كونياك يمكن ان تقدمه تلك الحانة .

والحقيقة انه كان مسرورا لانه اخيرا بدا يواجه الرجل الذى طالما سمع عنه الكثير . وكان فى مرجوه ان تنعقد بينهما صلة التعـارف فى مدى يوم او يومين . وهو يعلم انه ليس من العسير اطلاقا ان يتعرف اى انسان بشخص يقتنى كلبا عزيزا عليه . بيد انه لم يـكن فى عجلة من امره . ولذا سيترك الامور تجرى فى اعنتها . فالهدف

الذى يسعى الى تحقيقه لا يمكن ان يسمح له بالتعجل فى العمل .

واستعرض أشندن الظروف التى تحيط بالمسألة . فوجد ان جرانتلى كايبور انجليزى الجنسية ولد فى برمنجهام وهو الآن فى الثانية والاربعين من عمره . وزوجته التى اقترن بها منذ احد عشر عاما المانية المولد المانية الابوين . وهذه هى المعلومات العامة عنهما .

أما المعلومات الخاصة عن ماضى حياة الرجل فهى مكتوبة فى وثيقة سرية تذكر انه بدأ الحياة فى مكتب مجام فى برمنجهام ، ثم دخل ميدان الصحافة . واقترن اسمه بعدئذ بصحيفة انجليزية تصدر فى القاهرة ، ثم بصحيفة أخرى تصدر فى شنغهاى . وفى شنغهاى اتهم بمحاولة اختلاس اموال بطريقة الاحتيال وأدين ، وحكم عليه بالسجن فترة غير طويلة .

وبعد اطلاق سراحه اختفى كل أثر له مدة عامين ، الى ان ظهر مرة أخرى فى مكتب لادارة البواخر فى مرسيليا . ومن مرسيليا انتقل للعمل فى ادارة اخرى للبواخر بهامبورج . وهناك تزوج ثم انتقل للعمل فى لندن ، فأنشأ مكتبا للتصدير والاستيراد ، ولكنه فشل بعد زمن قصير واعلن افلاسه ، فعاد الى الصحافة . ولما أعلنت الحرب ترك الصحافة للعمل مرة اخرى فى ادارة البواخر . وفى أغسطس سنة ١٩١٤ كان يعيش مع زوجته حياة هادئة جدا فى ميناء سوثهامبتن .

وفى بداية سنة ١٩١٥ ابلغ رؤساءه ان جنسية زوجته الالمانية تجعل موقفه حرجا لا يطاق . وكان رؤساؤه راضين عن عمله ومدركين لما يعانيه بسبب زوجته الالمانية ، فنقلوه الى فرع الشركة فى جنوه . وظل هناك الى ان دخلت ايطاليا الحرب فى جانب الحلفاء ، فاستقال واجتاز الحدود ليقيم فى سويسرا بأوراق رسمية سليمة لا غبار عليها .

كل ذلك يدل على ان الرجل مطعون فى أمانته ، غير ميال للاستقرار ، وليس له مورد مالى ثابت . ولكن ذلك لم يكن يعنى أحدا الى ان اتضح ان كايبور كان بالتأكيد منذ بداية الحرب ، وربما قبل ذلك بسنوات ، جاسوسا فى خدمة ادارة المخابرات الالمانية . وكان المرتب الثابت الذى يتقاضاه من تلك الادارة هو اربعون جنيها فى الشهر .

ومع أن هذا فى حد ذاته امر خطير ومثير الا انه لم تتخذ اية خطوات ايجابية ضده الى ان دخل فى المسألة عنصر جديد . فلو أنه اكتفى بأن ينقل الى الالمان الانباء التى يمكنه الحصول عليها محليا فى سويسرا ، لما تحركت المخابرات الانجليزية للقضاء عليه ، فليس فى ذلك ضرر يستحق المبالاة . بل لعله كان من الممكن استخدامه لتبليغ بعض المعلومات المراد ايهام الالمان بها .

ولم يكن كايبور يدرى ان امره كشف . وكانت خطاباته وهى كثيرة جدا تخضع لرقابة دقيقة ، والاخصائيون فى المخابرات الانجليزية لا يستعصى عليهم حل اية شفرة . ومع مضى الوقت كان من المستطاع معرفة فلول الجواسيس الذين يتعاملون معه فى انجلترا . وفى ذلك فائدة كبيرة . ولكن كايبور جلب على نفسه غضب الكولونيل . ولو انه عرف معنى ذلك ، لارتجف قلبه ، لان الكولونيل رجل لا يتورع عن شىء اذا ثارت ثائرته على أحد .

وجلية الامر أن كايبور تعرف فى زيوريخ بشاب اسمه جوميز ، دخل منذ مدة قصيرة فى خدمة المخابرات الانجليزية . واستطاع كايبور بجنسيته الانجليزية ان يخدع الفتى الاسبانى ، ويكسب ثقته ،ويبتز منه المعلومات ، الى ان عرف انه يعمل فى الجاسوسية لحساب انجلترا ، وترتب على ذلك أن كايبور وشى به الى الالمان ، فراقبوه عن كثب وعندما سافر الى المانيا وضبط متلبسا بتصدير خطاب مكتوب بالشفرة ، وحل الالمان رموز تلك الشفرة ، حاكموه وادانوه ورموه بالرصاص !

وكان من المزعج أن تفقد انجلترا جاسوسا نافعا مخلصا فى عمله . وكان اسوأ من هذا ان تضطر لتغيير شفرة جواسيسها فى تلك المنطقة . وثارت ثائرة الكولونيل ، ولكنه كظم غيظه ورغبته فى الانتقام ، لان مصلحة المخابرات عنده فوق كل اعتبار . فلو أن كايبور كان يخون وطنه حبا فى المال فقط ، لكان من الممكن اقناعه بأخذ اموال انجليزية اكثر من الاموال الالمانية كى يخون مخدوميه . وسيكون ذلك سهلا عليه بعد ان سلم اليهم الجاسوس الانجليزى الاسبانى الجنسية جوميز ، فأثبت لهم اخلاصه لقضية المانيا ..

وفكر الكولونيل فى هذا الاحتمال ثم كلف اشـــندن بالاتصـــال به ليحكم هل يمكن الاعتماد على كايبور فى خدمة المخابرات الانجليزية أم لا . فان وجده صالحا لهذا فعليه أن يجس نبضه ويقترح عليـــه مايراه مناسبا .

وهى مهمة تحتاج الى لبـــاقة شـــديدة ومعرفة دقيقـــة بنفوس البشر . أما اذا اتضح لاشندن ان كايبور لا يمكن شراء اخلاصـــه ؛ فعليه أن يرصد حركاته ويخطر بها الرؤســـاء . وكانت المعلومات التى حصل عليها اشندن غامضة ولكنها هامة جدا . والطريف فيها ان رئيس المخابرات الالمانية فى برن مستاء فى المدة الاخيرة من كسل كايبور وعدم انتاجه . وكان كايبور يطالب بعلاوة ، ولكن الرئيس الالمانى فى برن رفض طلبه ، وصارحه بأنه يجب أن يبدى مزيدا من النشاط ، ثم اقترح عليه أن يعود الى انجلترا .

وفى ذلك المعرض قال الكولونيل لاشندن بعد أن أطلعه على هذه المعلومات :

ـ ان استطعت أن تستدرجه الى اجتيـــاز الحدود تكون قـــد نجحت غاية النجاح .

فسأله اشندن متعجبا :

ـ وكيف يحق الشيطان تتوقع منى أن اقنعه بوضـــع عنقه فى حبل المشنقة ؟

فضحك الكولونيل ضحكة بعثت القشعريرة فى جسم اشـــندن وقال :

ـ انها لن تكون مشنقة ... بل كتيبة من الرماة !

ـ ولكن كايبور رجل ماكر .

فصاح الكولونيل فى ضيق :

ـ فلتكن انت امكر منه . تبا لك !

وقرر اشندن الا يتخذ اية خطوات نحو التعرف بكايبور . وكل ماعليه هو تمهيد السبيل أمام كايبور كى يخطو الخطوات الاولى نحو التعـــرف به . واذا استبطأ الـــكولونيل النتـــائج فلن يحيد عن هذه الخطة .

لقد افهم ربة الفندق انه موظف فى ادارة الرقابةالانجليزية ، وقد

نقلت حتما هذه المعلومات الى كايبور . فلا شك انه ان لم يكن عاجلا فآجلا سيسعى الى مجاذبة اطراف الحديث مع انجليزى يعمل فى ذلك القطاع الحساس من الادارة الحربية .

وفى الوقت نفسه كان الكولونيل قد زود اشندن بكمية من المعلومات التى لن تفيد الالمان فى شىء . ولما كان اشندن يحمل هذه المرة اسما مستعارا وجواز سفر مزيفا ، فليس من المحتمل أن يفطن كايبور الى انه بازاء جاسوس انجليزى .

الفصل الثالث عشر

دروس

ولم يطل انتظار أشندن . ففى اليوم التالى كان جالسا بمدخل الفندق يحتسى قدحا من القهوة ، وقد ثقل جسمه ، وكاد يغلبه النعاس على صحوه بعد وجبة غذاء دسمة ، عندما برز آل كايبور من قاعة المائدة .

وصعدت مسز كايبور الى حجرتها ، أما كايبور ففك عقال كلبه الذى اخذ فى الوثب والقفز وبصورة ودية وثب على أشندن . فصاح كايبور :

ـ تعال هنا يا فريتزى ...

ثم التفت الى أشندن وقال :

ـ انى آسف جدا ، ولكنه لطيف للغاية .

فقال أشندن :

ـ أوه . لا بأس . انه لن يؤذينى .

ووقف كايبور عند الباب ، وقال :

ـ انه من نوع البول تيرير . وهو نوع نادر الوجود فى القارة الاوروبية .

ويبدو انه كان وهو يتكلم يتفحص أشندن . ثم صاح بالخادمة :

ـ فنجان قهوة من فضلك يا آنسة .

والتفت الى أشندن وقال له :

ـ لقد وصلت اخيرا . أليس كذلك ؟

ـ بلى . وصلت بالامس .

فتصنع كايبور الدهشة وقال :

ـ احقا ؟ انى لم أرك بالامس فى قاعة الطعام . هل تنوى الاقامة طويلا ؟

ـ لا أدرى فقد كنت مريضا وجئت الى هنا كى استرد قواى .

وجاءت الخادمة بالقهوة . فلما رات كايبور يتحدث الى اشـندن وضعت صينية القهوة فوق المائدة الجالس اليها اشندن . فضحك كايبور ضحكة تنبىء عن حرج يسير .

ـ انا لا اريد ان اقحم نفسى عليك . لكنى لا اعلم لـماذا وضعت الخادمة قهوتى فوق مائدتك .

فقال اشندن :

ـ ارجوك ان تجلس .

ـ هذا كرم كبير منك . فقد عشت فى القارة مدة طويلة حتى لقد اصبحت انسى أن مواطنى يعتبرونها صفاقة من المرء أن يكلمهم بغير معرفة سابقة ، وبهذه المناسبة هل انت انجليزى أم امريكى ؟

فقال اشندن :

ـ بل انجليزى .

وكان اشندن بطبيعته رجلا خجولا جدا . وقد اجتهد عبثا ان يشفى نفسه من ذلك النقص الذى لا يتفق مع سنه . لـكنه فى بعض الاحيان يستغل هذه الصفة استغلالا حسنا . فأخذ يشرح فى تردد وتلعثم الحقائق التى اخبر بها ربة الفندق فى اليوم السابق وكان موقنا انها نقلتها الى كايبور بحذافيرها . ولما انتهى منها قال كايبور :

ـ انك ماكنت لتأتى الى مكان افضل من لوسرن . فهى واحة من واحات السلام فى هذا العالم الذى انهكته الحرب . فانك وانت هنا فى وسعك ان تنسى تقريبا كل النسيان أن هناك حربا عالميـة ناشبة . وهـذا هو السبب فى اننى جئت للاقامة هنا . وانا رجل مهنته الصحافة .

فقال اشندن وهو يبتسم ابتسامة خجلى :

ـ لقد خطر ببالى وانا اسمعك تتكلم أنك تمارس الكتابة .

والحقيقة انه كان واضحا أن تعبيرا مثل « واحـة من واحـات السلام فى عالم انهكته الحرب » لا يمكن أن يكون مما اكتسـبه فى مكاتب البواخر ...

واستطرد كايبور وعلى وجهه امارات الجد :

ـ والمسألة اننى متزوج من سيدة المانية .
فقال اشندن بسذاجة :
ـ حقا ؟
ـ ولا اعتقد انه يمكن ان يكون هناك من هو اشد وطنية منى . فانا انجليزى دما ولحما . ولست ابالى أن أقول لك ان الامبراطورية البريطانية فى اعتقادى هى اعظم اداة للخير عرفها العالم فى تاريخه كله . ولكن زواجى من سيدة المانية يجعلنى ارى بصورة طبيعية أن هناك وجهة نظر اخرى . ولست بحاجة الى ان تخبرنى أن للالمان عيوبهم . ولكنى بصراحة لست مستعدا للقول بأنهم الشيطان مجسدا .. وفى بداية الحرب قاست زوجتى الامرين ونحن فى انجلترا . وأنا شخصيا لا استطيع من جانبى أن ألومها لو انها شعرت بالمرارة لذلك السبب . فكل انسان هناك كان يظنها جاسوسة . ولاشك أن ذلك سيجعلك تضحك كثيرا عندما تعرف شخصيتها ، فهى نموذج ربة البيت الالمانية التى لا يعنيها من العالم كله شيء سوى بيتها وزوجها وطفلنا الوحيد فريتزى .!
وربت كايبور على كلبه واطلق ضحكة صغيرة :
ـ نعم يا فريتزى . انت طفلنا . أليس كذلك ؟
ثم استأنف حديثه الى اشندن :
ـ وطبيعى أن هذا الموقف جعل مركزى حرجا جدا فى انجلترا . وكنت متصلا بعدد من اهم الصحف . فلم يكن محرروها مستريحين للوضع . ولا اطيل عليك اننى رايت من الاكرم لى أن استقيل وآتى للاقامة فى بلد محايد الى ان تنتهى العاصفة . وانا وزوجتى لا نناقش فى موضوعات الحرب اطلاقا . مع انها اكثر تسامحا منى واكثر استعدادا للنظر الى هذه الكارثة العالمية من وجهة نظرى .
ـ هذا غريب حقا . فالقاعدة ان النساء اشد تعصبا من الرجال .
ـ ان امرأتى شخصية فذة جدا . وأحب ان اقدمها اليك . وبهذه المناسبة لا ادرى ان كنت تعرف اسمى : جرانتلى كايبور .
فقال اشندن :
ـ واسمى سومرفيلد .
ثم حدثه عن العمل الذى كان مضطلعا به فى ادارة الرقابة . وخيل

اليه أن ذكر وظيفته كان له صدى فى بريق عينى كايبور . ثم أخبره انه ينشد شخصا يعطيه دروسا فى المحادثات الالمانية كى ينتهز الفرصة وينفض الصدأ عن معلوماته فى تلك اللغة .

واثناء الكلام خطرت له فكرة ، فنظر الى كايبور ورأى أن الفكرة نفسها خطرت له . اى انها خطرت لكليهما فى وقت واحد . ومفاد هذه الفكرة ان مسز كايبور تصلح أستاذا ممتازا لاشندن .

ـ لقد سألت ربة الفندق ان كانت تستطيع أن تنشد لى شخصا ؛ فقالت انها تظن ذلك مستطاعا . فيجب ان اعيد عليها السؤال . لانه ليس من الصعب أن تجد رجلا مستعدا للحضور كى يحدثنى بالالمانية ساعة كل يوم .

فقال كايبور :

ـ انا شخصيا لا آخذ بتزكية ربة الفندق فى هذا . فانت بحاجة الى شخص يتكلم الالمانية الجيدة بلهجة اهل الشمال السليمة . فى حين أن ربة الفندق لا تتكلم الا باللهجة السويسرية . سأسأل زوجتى ان كانت تعرف لك أحدا . وزوجتى امرأة متعلمة تعليما عاليا جدا وتستطيع أن تثق بتزكيتها .

ـ هذا كرم عظيم منك .

وجعل اشندن يرمق جرانتلى كايبور على مهل ، فلاحظ أن عينيه الصفيرتين الخضراوين فيهما مكر شديد لا يتفق مع الصراحة والمرح البادبين فى ملامح وجهه . فهما عينان سريعتان ثاقبتان . ولكن اذا ومض فى ذهنه خاطر مفاجىء تثبت نظرتهما فجأة . فهما عينان لا توحيان بالثقة . أما وجهه الطيب الباسم العريض ، وجسمه البدين ، وصوته المرح العميق ، فتعوض له ذلك النقص .

وكان واضحا انه الآن يبذل غاية جهده كى يبدو لطيفا أنيسا . والحقيقة أن أشندن وجد صعوبة شديدة وهو يستمع اليه فى تذكر انه بازاء جاسوس عادى ، رضى أن يبيع وطنه بأربعين جنيها فى الشهر .

وكان أشندن يعرف جوميز الشاب الاسبانى الذى خانه كايبور. وجوميز فتى عالى الهمة محب للمغامرة ، ولم يقبل القيام بخدمة المخابرات الانجليزية رغبة منه فى المال بل شوقا الى جو المغامرة

والاثارة الرومانسية التى تقترن بالشعور بالاسهام فى قهر الالمان . ولم يكن هينا على اشندن أن يتصوره دفينا فى خندق المانى على عمق ست أقدام تحت فناء السجن . لانه كان رشيقا مرحا حافلا بعصارة الحياة . وتساءل اشندن بينه وبين نفسه ألم يشعر كايبور بغصة تعترض حلقه وهو يسلمه الى منيته .

وسأل كايبور اشندن وقد أثار الغريب اهتمامه :

ـ اظنك تعرف شيئا من اللغة الالمانية ؟

ـ طبعا . فقد كنت طالبا بألمانيا فترة من الوقت ، وكنت أتكلم الالمانية بطلاقة ، ولكن ذلك كان منذ زمن بعيد ، فنسيت الكلام بها . ولكنى استطيع أن اقرأ بها فى يسر .

ـ آه . لقد لاحظت انك كنت تقرأ كتابا المانيا مساء امس .

يالله من احمق ! كان ينبغى أن يكون ذلك الكذوب ذكورا . فمنذ هنيهة قال لاشندن أنه لم يره بالامس . ولكن اشندن كان من الحصافة بحيث لم يظهر على وجهه ما يدل على فطنته الى ذلك التناقض . وكان عليه ايضا أن يتعظ بغلطة كايبور فيكون على حذر من الوقوع فى مثلها . ومن يدرى ؟ لعل كايبور تعمد تلك الغلطة كى يقرأ أثرها على سحنة اشندن .

ونهض كايبور قائلا :

ـ ها هي ذى زوجتى . فنحن نذهب كل عصر لنتسلق احد الجبال . واستطيع أن أدلك على نزهات بديعة سيرا على الاقدام . والازهار حتى فى هذا الوقت من السنة رائعة الجمال .

فتنهد اشندن وقال :

ـ أخشى اننى لابد ان اتريث الى ان استرد مزيدا من عافيتى .

ومما ساعد اشندن على هذا الكذب ان وجهه كان شاحبا بطبيعته ولا تبدو عليه قوته الحقيقية .

وهبطت مسز كايبور السلم وانضم اليها زوجها فسارا فى الشارع وفريتزى يجرى ويقفز بين أيديهما تارة ومن خلفهما تارة اخرى . ولاحظ اشندن أن كايبور بدأ على الفور فى التحدث الى زوجته بطلاقة . فلاشك فى انه كان يخبرها بنتائج محادثته مع اشندن .

ونظر اشندن الى الشمس المشرقة فى بهاء على البحيرة ، والنسيم الرقيق يداعب فى هوادة اوراق الاشجار الخضراء . فكان كل شىء يدعو الى رياضة المشى . ولكنه نهض وصعد الى حجرته ، وارتمى على فراشه ، واستغرق فى نوم لذيذ .

ونزل الى قاعة المائدة فى المساء لتناول العشاء ، فوجد آل كايبور يختمان وجبتهما ، وفى طريقهما للانصراف من القاعة وقف كايبور امامه ودعاه لتناول القهوة معهما فى البهو . فلما لحق بهما هناك وقف كايبور وقدمه الى زوجته ، فانحنت فى تصلب ولم ترد على ترحيب اشندن المهذب ولو بابتسامة . فلم يكن من العسير أن يدرك أن مسلكها عدائى تماما . وقد شعر اشندن بالراحة لذلك .

وكانت مسز كايبور امرأة عاطلة من الجمال تقارب الاربعين من عمرها ، بشرتها جافة خشنة وملامحها غير محددة ، وشعرها مصفف فى حلقة حول رأسها على طراز ملكة بروسيا فى عصر نابليون . وهى ذات قامة ربعة اقرب الى الامتلاء منها الى البدانة ، متينة البنية ، ولكن لا يبدو عليها الغباء بل بالعكس تبدو امرأة ذات طبع قوى .

وكان اشندن قد قضى من حياته شطرا كافيا فى المانيا فعرف نسوة من ذلك النمط . ولم يكن ليدهشه ان تجمع بين القدرة والكفاءة فى أعمال البيت ، والبراعة فى الطهو ، والمهارة فى تسلق الجبال ، والاحاطة بالمعارف العامة والثقافة الرفيعة .

وكانت ترتدى ثوبا ابيض زاد فى وضوح سمرة عنقها ، وقد انتعلت حذاء ثقيلا . وكلمها كايبور بالانجليزية فاخبرها بلهجة مرحة بما أحاطه به اشندن من معلومات عن نفسه ، كأنها لم تعرف ذلك منه من قبل . ولكنها كانت تصغى متجهمة .

والتفت كايبور الى اشندن فقال له بوجه باسم وعينين نفاذتين لا تستقران من شدة التيقظ :

ـ اظنك اخبرتنى انك تفهم الالمانية .

فقال اشندن :

ـ نعم . فقد كنت طالبا مدة من الزمن فى جامعة هايدلبرج .

فقالت مسز كايبور بالانجليزية وقد ظهرت على سحنتها اثارة يسيرة من الاهتمام :

ـ حقا ؟ انى اعرف هايدلبرج معرفة جيدة . لانى قضيت سنة كاملة تلميذة فى احدى مدارسها .

وكانت انجليزيتها صحيحة ، ولكن مخارج الحروف حلقيـة غير مستحبة . وانبرى اشندن يطرى المدينة الجامعية العتيقة ؛ وجمال المناظر فى المنطقة المحيطة بها . فكانت تستمع لما يقـول من علياء شعورها التيوتونى بالتفوق ، في تسامح واغضاء لا فى حماسة . ثم قالت :

ـ من المعروف تماما أن وادى نكار من اجمل الاماكن فى العـالم أجمع .

وعندئذ قال كايبور :

ـ لم أخبرك ياعزيزتى أن مستر سومرفيل يبحث عن شـخص يلقنه دروسا فى الحادثات الالمانية مدة اقامته هنا . فقلت له انك ربما استطعت أن ترشحى له معلما .

فقالت الالمانية :

ـ كلا . انا لا أعرف أحدا يمكن ان ازكيـه عن ثقـة . فاللهجة السويسرية كريهة كراهة لا توصف . ولن يستفيد بل يضار مستر سومرفيل اذا تحدث مع سويسرى بالالمانية .

فقال كايبور :

ـ لو كنت فى مكانك يا مستر سومرفيل لحـاولت ان اغـرى زوجتى بتلقينى هذه الدروس . فهى ان جـاز لى أن اقول امراة مثقفة جدا ومتعلمة تعليما عاليا .

فصاحت زوجته :

ـ آخ ! ليس لدى وقت لهذا ياجرانتلى . فعندى عملى الخاص .

وأدرك اشندن ان الفرصة اتيحت له . فالفخ أمامه ، وكل ما عليه ان يتردى فيه . فالتفت الى مسز كايبور وقال بلهجة أجتهـد أن يشوبها الخجل والتوسل والتواضع :

ـ انه لشىء عظيم حقا لو انك تكرمت بتلقينى هذه الدروس . سأعتبرها خدمة جليلة وخطوة عظيمة . وأنا بطبيعة الحال لا أريد أن اتدخل فى عملك ، فالغرض الرئيسى من وجودى هنا هو استرداد عافيتى . وليس عندى أى عمل يشغلنى . وسـوف يوافقنى اى موعد تحددينه لهذه الدروس على حسب أوقاتك

واحس بشرارة رضا وسرور تنتقل من الزوج الى الزوجة . ولمح وميضا خفيفا فى عينى مسز كايبور الزرقاوين . وقال كايبور :

ـ انها طبعا ستكون مسالة عملية على اساس واضح . فليس هناك مايدعو اطلاقا الا تجنى زوجتى الطيبة شيئا من المال . فها تعتقد ان عشرة فرنكات سويسرية فى الساعة أجرا عاليا ؟

فقال اشندن على الفور :

ـ اطلاقا . بل انى اعتبر نفسى محظوظا اذا ظفرت بأستاذة الدرجة الاولى لقاء هذا المبلغ .

فقال كايبور لزوجته بحماسة :

ـ وما قولك الآن يا عزيزتى ؟ انك بالتاكيد تستطيعين ان توفرى من وقتك ساعة كل يوم كى تسدى الى هذا السيد مكرمة . فيعلم ان ليس جميع الالمان شياطين كما يظنونهم فى انجلترا .

وقطبت مسز كايبور حاجبيها تقطيبا شديدا جعل اشندن يدرك الجو الذى ينتظره فى ساعة الدرس اليومية التى سيقضيها فى تبادل الاحاديث معها . والله وحده يعلم كيف سيجهد دماغه بحثا عن موضوعات للكلام مع هذه المراة الثقيلة الواجمة !

ورآها تبذل مجهودا شديدا كى تقول :

ـ سيسرنى غاية السرور ان أعطى مستر سومرفيل دروسا يومية فى المحادثة باللغة الالمانية .

فقال كايبور مهللا :

ـ مبروك يامستر سومرفيل . لقد ربحت هذه الصفقة . والآن متى تريد أن تبدأ الدروس ؟ أيوافقك الغد ؟

ـ فى أية ساعة ؟

ـ الساعة الحادية عشرة .

ـ هذه الساعة تناسبنى جدا اذا كانت تناسب مسز كايبور .

فقالت بعدم اكتراث :

ـ انها ساعة كاية ساعة اخرى .

وتركهما اشندن ليناقشا على سجيتهما النتيجة الرابحة التى تمخضت عنها مناوراتهما الدبلوماسية .

وفى الحادية عشرة من صباح اليوم التالى بالضبط سمع طرقا خفيفا على باب حجرته . ففتح الباب وهو لا يخلو من توجس . لانه يجب أن يكون فى غاية التيقظ فى حديثه مع هذه السيدة الالمانية الذكية المتوترة الاعصاب وفى الوقت نفسه يجب أن تظهر عليه باستمرار دلائل الصراحة والبساطة .

وكان وجه مسز كايبور مقطبا عندما دخلت مما يدل بوضوح على انها متكرهة من وجود اية صلة بينها وبينه . ولكنها جلست وبدأت بغير مقدمات تسأله عن معلوماته فى الادب الالمانى . وكانت تصحح له أخطاءه بدقة . وحين يستفسرها عن بعض المصاعب التى يجدها فى تركيب الجملة ، كانت تشرح له كل شىء بوضوح ودقة .

وهذا يدل على انها اذا كانت تكره من صميم قلبها أن تكون بينها وبينه اية معاملة ، الا انها كانت عازمة على القيام بذلك العمل بكل أمانة . وكان واضحا ايضا انها لا تملك الكفاءة للتعليم فحسب ، بل وتحب تلك المهنة ايضا . وبمرور الدقائق انطلق لسانها وابدت مزيدا من الهمة والاهتمام ، حتى صارت بحاجة الى جهد كى لا تنسى أنها بازاء انجليزى بهيم همجى .

وكانت ملاحظة ذلك الصراع تتيح لاشندن شيئا من الرياضة المتعة . ولذلك كان صادقا عندما سأله كايبور بعد الفداء عن الدرس ، فأجابه بأنه راض كل الرضا . وان مسز كايبور استاذة ممتازة وشخصية جديرة بالاعتبار .

وهتف كايبور متهللا :

ـ الم اقل لك هذا ؟ انها أعظم امراة عرفتها !

وشعر اشندن أن كايبور وهو يقول هذا الكلام بطريقته الصاخبة الضاحكة كان صادقا مخلصا لاول مرة .

وبعد يوم او يومين عرف اشندن ان مسز كايبور كانت تعطيه هذه الدروس لغرض واحد وهو تمكين زوجها كايبور من مزيد من القرب بينه وبين اشندن . فقد حصرت نفسها بدقة فى مسائل الادب والموسيقى والرسم . ولما حاول اشندن أن يختبرها وطرق موضوع

الحرب ، لم يكن منها الا ان اوقفته عند حده قائلة :

ـ اظن ان هذا موضوع يحسن بكلينا ان نتجنبه ياهر سومرفيل .

واستمرت تعطيه الدروس بدراية تامة ، بحيث يظفر بمقابل عادل للاجر الذى يؤديه ، ولكنها كانت تاتى كل يوم بنفس الوجه الكالح المقطب . ولم يفارقها هذا الكره الا تحت حماسة التدريس . وجرب اشندن جميع اساليبه من تقرب وامتنان وتواضع وتملق وحياء ، ولكنها احتفظت بعدائها وبرودها . انها من الطراز المتعصب من البشر . ووطنيتها وطنية عدوانية ولكنها نزيهة . وسر كراهيتها لانجلترا والانجليز انها ترى فى تلك الامبراطورية العقبة الاساسية فى وجه السيادة الالمانية على العالم .

ان مثلها الاعلى عالم المانى تكون فيه جميع الامم غير الالمانية خاضعة لالمانيا ، كما كانت روما سيدة العالم القديم ، بحيث ينعم اهل الارض كافة بمزايا العلم الالمانى والفن الالمانى والثقافة الالمانية .

ولم تكن هذه السيدة بلهاء . فقد قرات كثيرا فى لغات شتى وكانت تستطيع ان تتكلم عن الكتب التى قراتها كلاما يتم على ذوق وحس . وكانت لديها معلومات عن الرسم الحديث والموسيقى الحديثة بهرت اشندن .

واعجبه أن يسمعها ذات مرة قبل الغداء تعزف مقطوعة صغيرة لطيفة للموسيقى الفرنسى دى بوسى . وكانت تعزفها فى ازدراء لان المؤلف فرنسى وموسيقاه خفيفة ، ولكن مع تقدير على مضض لرشاقتها ومرحها . ولما هنأها اشندن على اجادة العزف هزت كتفيها وقالت :

ـ موسيقى مضمحلة لامة مضمحلة .

ثم بدات بيديها القويتين تعزف المقطوعة الاولى لاحدى سمفونيات بيتهوفن . ثم لم تلبث ان كفت قائلة :

ـ ماذا تعرفون ايها الانجليز عن الموسيقى ؟

فابتسم اشندن وقال لكابتور :

ـ ما رايك فى هذا ؟

ـ انا اعترف بهذه الحقيقة . فالقليل الذى اعرفه عن الموسيقى

تعامته من زوجتى . وليتك تسمعها وهى تعزف شيئا ممتازا ، فان قلبك سيهتز حتما لروعة ذلك الجمال الصافى .

فقالت الالمانية وقد لانت أساريرها لاطراء زوجها قليلا :

ـ انتم معشر الانجليز لا تحسنون الرسم ولا النحت ولا الموسيقى .

فقال اشندن فى ابتسام :

ـ ولكن نفرا منا يحسنون نظم الشعر .

ـ هذا شيء أعترف به . انتم شعراء . ولست ادرى السر .

والتفتت الى زوجها قائلة :

ـ هيا ياجرانتلى الى قاعة الطعام فقد أعد الغداء .

وتركا اشندن مفكرا .

الفصل الرابع عشر

صداقة

واشندن بطبيعته شديد الاعجاب بالفضيلة ، ولكنه لا يشمئز ولا يستاء من الشر والرذيلة . وكان الناس فى بعض الاحيان يحسبونه انسانا بلا قلب ، لانه كان يهتم اهتماما ذهنيا بالآخرين من غير أن يتعلق قلبه بهم . وحتى القلة من الناس الذين تعلق بهم كانت عينه ترى فى نزاهة وجلاء جانبى المزايا والنقائص فيهم . فعندما يحب انسانا لم يكن حبه له لانه عمى عن عيوبه ، بل لانه لا يبالى بتلك العيوب ، ويقبلها فى تساهل وهو يهز كتفيه ، أو يقارنها بمزاياه فتطغى المزايا على العيوب . ولانه كان يزن اصحابه بميزان حصيف لم يخب امله فى أحد منهم ، ولذا لم يفقد صداقة احد . ولم يطالب يوما صديقا له بأكثر مما يستطيع .

وبفضل هذه السليقة استطاع اشندن أن يرقب آل كايبور ويدرس الشخصيتين من غير تجن ولا تحيز . فبدت له مسز كايبور غير معقدة التركيب ، وهى لهذا ايسر فهما من زوجها . كان واضحا جدا انها تكره اشندن ، مع أن ظروفها تحتم عليها أن تكون شديدة الهذب فى معاملته . مما جعل عواطفها تغلبها على امرها فى بعض الاحيان ، فتكون لهجتها فى مخاطبته نابية بالفظاظة . ولاحظ ايضا من الاختلاج الخفيف الذى يعترى شفتيها حين يربت زوجها ، بيده الغليظة على كتفها فى حنان ، انها شديدة الارتباط بزوجها ، وان الحب الذى بينهما صادق عميق مؤثر .

وجعل اشندن بدون الملاحظات التى تتجمع له فى الايام القليلة الاولى الى ان ثبت له ان مسز كايبور تحب زوجها لان طبعها اقوى من طبعه ولانها تشعر باعتماده عليها ، كانت تحبه لاعجابه بها .

وكان من السهل ادراك ان هذه المراة العاطلة من الجمال ، المجردة من روح الفكاهة والاناقة والجاذبية ، لم تصادف فى حياتهـا رجلا اعجب بهـا قبل أن تلتقى بكايبـور ، ولذا صـار اعجابه جوهريا لانوثتها . واصبحت تستسيغ مرحه ونكاته الصـاخبة كأنه طفـل كبير كثير الضجة . فهى اقرب فى شعورها نحوه الى الامومة . وهى تحبه وترعاه وتغضى عن مواطن ضعفه ، التى لاشك فى انها لم تكن خافية على فطنتها .

واما من جهة الجاسوسية فان اشندن على الرغم من تسـاهله الشديد ازاء الضعف البشرى ، كان ينظر الى خيـانة المرء لوطنه نظير ثمن مالى نظرة قاسية . ولاشك أن زوجته كانت تعـرف انه جاسوس . ولعل اتصال الالمان به فى البـداية كان عن طريقهـا . ولعله لم يكن ليقبل القيام بذلك العمل الشائن لولا أنها دفعته اليه دفعا . وهى امرأة مستقيمة امينة تحب زوجهـا ، فاية وسـيلة ملتوية لجأت اليها كى تقنع نفسها بشرعية اكراه زوجها على قبول مهمة معيبة وضيعة مثل هذه المهمة ؟ هذا سؤال لم يسـتطع اشندن أن يجد له جوابا على ضوء تصوره لتركيب مسـز كايبور النفسى .

اما جرانتلى كايبور فله شأن آخر . اذ ليس فيـه ما يسترعى الاعجاب . ولكن اشندن لم يكن يبحث عن موضـوع للاعجـاب . وكان فى كايبور اشـياء كثيرة غريبة وفذة وغـير متوقعة فى ذلك المخلوق السوقى . وكان اشـندن يرقب باستمتاع اساليب كايبور فى محاولة استدراجه الى حبـائله . فبعد يومين اثنـين من الدرس الاول اقبل كايبور بعد العشاء وقد صعدت زوجته الى حجرتها فالقى بنفسه فى مقعد بجوار اشندن . وجاء فريتزى فوضع راسه فوق ركبته . فقال كايبور :

ـ انه مخلوق بلا عقل . ولكن قلبه من ذهب . انظر الى هاتين العينين الحمراوين وخبرنى ، هل رايت فى حيـاتك نظيرا لهما فى الغباء ؟ وما اقبح وجهه . ولكن ما اشد سحره !

ـ اله عندك مدة طويلة ؟

ـ من قبيل اعلان الحرب . وبهذه المناسبة مارايك فى اخباراليوم؟

أننى طبعا لا اتناقش فى هذه الامور مع زوجتى . فلا تستطيع أن تتصور مدى سرورى اذ اجد مواطنا لى فى لوسرن افتح له قلبى .

وقدم الى اشندن سيجارا سويسريا رخيصا وقبله اشندن على سبيل التضحية الكريهة . واستطرد كايبور يقول :

ـ ان الالمان طبعا ليست امامهم اية فرصة للنصر . وكنت موقنا من هزيمتهم منذ دخلنا المعركة . والحقيقة أننى حزنت حزن العمر كله عندما ادركت أن جنسية زوجتى تقف بينى وبين الاشتراك فى اى عمل من اعمال الحرب . وقد حاولت أن اتطوع منذ اعلنت الحرب ولكنهم لم يقبلوا تطوعى بسبب سنى . ولست ابالى أن اخبرك أنه فى حالة استمرار الحرب الى أمد طويل فلابد أن أصنع شيئا . ولا شك أن معرفتى بلغات كثيرة يمكن أن تجعلنى اداة نافعة فى الرقابة مثلا . وهذا فيما اظن هو الديوان الذى تعمل فيه . اليس كذلك ؟

وكان هذا هو الموضوع الذى يريد الوصول اليه . ولما كان اشندن يتوقع منه تلك الخطوة ، فقد رد عليه بالاجوبة التى اعدها من قبل . وادنى كايبور مقعده قليلا من اشندن وقال بصوت خفيض :

ـ انك طبعا لن تخبرنى باى شىء من الاسرار التى لا ينبغى البوح بها . ولكن هؤلاء السويسريين فى لوسرن ضالعون مع الالمان بصورة واضحة ، ولا نريد ان نتيح لاحد منهم فرصة استراق السمع .

وشرح يخبر اشندن بعدة أشياء ومعلومات لها صفة سرية ثم قال :

ـ هذه امور ماكنت لاخبر بها أحدا سواك . ولكن لى اصدقاء فى مناصب ذات نفوذ ولهم بى ثقة ..

وتظاهر اشندن بالثقة ايضا وافضى اليه بعدة اشياء لها صفة السرية . بحيث افترقا وكل منهما مستريح لما حصل عليه من ثقة الآخر . وايقن اشندن ان آلة كايبور الكاتبة دائبة على العمل فى اليوم التالى ، وان رئيس المخابرات الالمانية فى برن سيتلقى عن قريب تقريرا ممتعا جدا من كايبور .

وذات مساء بعد العشاء صعد اشـــندن متجها الى حجرته فمر بباب حمام مفتوح ورأى بداخله آل كايبور . وصاح كايبور بلهجته الودود .

ـ ادخل . اننا نغسل فريتزى .

وكان الكلب يلطخ نفسه دائما بالاقذار مع أن آل كايبور يعتزان جـدا بنظافته . ودخـل اشـندن فوجدهما منهمكين فى عمليـة الاستحمام . وقال كايبور وهو يدعك بالصابون فروة فريتزى :

ـ اننا مضطرون للقيام بهذه العمليـة ليلا . لان آل فيزجيرالد يستخدمون هذا الحمام ويغضبهم جدا أن يستخدمه كلبنا . ولذا ننتظر الى أن يناموا . هيـا يا فريتزى اظهـر حسن تربيتـــك وانا أصبن لك عينيك .

وأخذ الكلب يهز ذيله اظهارا لتهذيبه ودماثته . وكايبور لا يكف عن التنظيف وهو يثرثر ملاطفا كلبه كأنما يتحايل عليه تحايل الاب الحنون على طفله الصغير . ومسز كايبور تصغى وتبتسم ابتسامة يسيرة من غير أن تفارق مسحة الجد ملامح وجهها :

ـ والآن اذهب الى أمك كى تتولى تجفيف جسمك !

فجلست مسز كايبور وتلقته بين ساقيها القويتين وجعلت تجففه جيدا الى أن طفر العرق من جبينها . . وتأثر اشـــندن جدا بهـذا المنظـر العـائلى الهـادىء حتى أنه كان يرتجف قليلا ، وهو يستأنف طريقه الى حجرته .

وفى يوم من أيام الاحد اخبره كايبور انه سيذهب مع زوجته فى رحلة بالجبال ، وسيتناولان الغداء فى مطعم جبلى صغير ، واقترح على اشندن ان يصحبهما وكل منهم على نفقته الخاصة طبعا . وكان قد انقضى على حضوره الى لوسرن ثلاثة أسابيع ، فقـــدر اشندن انها مدة كافية للنقاهة بحيث يكون معقولا أن يخـرج فى مثل تلك النزهة . وخرج الثلاثة معا . وقد قرر اشندن ان يكون على حذر فليس من المستبعد ان يكون كايبور اكتشف صنعته الحقيقية ، فمن الافضل أن يكون على حذر ولا يقترب من حافة هـوة فى الجبـل ، لان مسز كايبور فى هذه الحالة لن تتردد فى دفعـه بيديها القويتـين خدمة لوطنها . وفى الوقت نفسه لم يسمح لحذره ان يفسد عليـه استمتاعه بالرحلة والمناظر والجو البديع فى ذلك النهار .

ولم يكف كايبور عن الكلام ، وروى حكايات كثيرة مضحكة . وكان يضحك من نفسه لان العرق يتصبب من وجهه الاحمر البدين ، وادهش اشندن بمعلوماته المستفيضة عن الازهار الجبلية . وكان ينتقى منها نماذج بديعة ، ويظهر فى عينيه الاعجاب والخشوع . فقالت زوجته :

ـ ان علم النبات هو هواية زوجى . واحيانا اضحك منه ومن تعلقه بالازهار . وفى كثير من الاحيان عندما نكون فى ضائقة لا تسمح لنا بدفع مطلوبات الجزار ، اراه ينفق كل مافى جيبه لياتينى بباقة من الورد .

وكان اشندن موقنا من صدق تعلق كايبور بالازهار ، وعمق حبه لها ولزوجته . وذلك يدل على رقة فى احساسه لم يعجب اشندن من وجودها لدى رجل دفع بالشاب الاسبانى الى الموت . فالقلب الانسانى يتسع للنقائض .

وعندما وصل الثلاثة الى المطعم الجبلىّ المطل على البحيرة . كان ممتعا حقا ان يرى كايبور يصب فى حلقه بتلذذ عظيم زجاجة مثلوجة من البيرة . وما كان بوسعك الا تتجاوب مع رجل يحب اللذات البسيطة فى الحياة بهذا السرور الواضح .

وتناول الثلاثة الطعام فى الشرفة الجميلة وقد سحرهم المنظر الخلاب ، حتى أن الدموع طفرت الى عينى مسز كايبور ، فقالت :

ـ ما اشد خجلى من نفسى ! فبالرغم من علمى أن مذبحة عالمية تدور من حولنا ، لا استطيع أن أشعر فى اعماق قلبى فى هذه اللحظة الا بالسعادة والامتنان .

فتناول كايبور يدها وضغط عليها واخذ يناديها بألفاظ التدليل باللغة الالمانية ، فتأثر اشندن تأثرا عظيما وتركهما ليخلوا الى نفسيهما ، وذهب يتجول فى الحديقة . ثم جلس فوق مقعد حجرى هناك ، واخذ يقلب فى ذهنه مأساة هذا الانسان الغريب الاطوار الذى تجتمع فيه البساطة والرقة والخسة والمرح وخفة الدم . وحاول أن يحل اللغز الذى دفع به الى سلوك هذه الطريق الشائكة . ولم يجد حلا يرضى عقله . وتمنى لو أن الناس فى هذه

الدنيا كان كل منهم اما ابيض واما اسود بغير اختلاط او تنويع .
هل كايبور انسان طيب احب الشر ام هو انسان شرير احب الخير ؟ وكيف امكن ان توجد فيه جنبا الى جنب ، وفى اتساق تام ، كل هذه الصفات المتضادة ؟ انه خائن لا يؤنبه ضميره على خيانته بل يجد فيها لذة !

انه الآن موقن ان كايبور يجد سعادة وزهوا فى خيانة وطنه ، ولذا فمن العبث أن يحاول الوصول معه الى اتفاق لشراء خدماته لبلاده . وتأثير زوجته عليه شديد جدا ، وهو فى اعماق نفسه معتقد ان النصر معقود للالمان فى النهاية ، وهو يريد أن يكون مع الفريق الظافر .

لا حيلة فى الامر اذن ، ويجب الايقاع بهذه الشخصية الفريدة ولكنه حتى الآن لا يعرف كيف سيكون سبيله الى ذلك .

ونبهه صوت آل كايبور مقبلا نحوه :

ـ أين ذهبت ؟ انت معذور فى الاختلاء بنفسك امام هذا الجمال الساحر . وهذا طبعا تغيير كبير تشعر به بعد معيشة الحرب المرهقة للاعصاب فى انجلترا .

ـ الفرق كبير جدا .

ـ وبهذه المناسبة هل وجدت صعوبة فى مبارحة البلاد ؟

ـ لم أجد ادنى صعوبة .

ـ قيل لى أنهم يدققون كثيرا على الحدود فى هذه الايام .

ـ لم أجد اية صعوبة ولا أظنهم يدققون كثيرا مع الانجليز . حتى لقد خيل الى أن فحص جواز السفر كان صوريا .

وتبادل الزوجان نظرة خاطفة حار اشندن فى فهم مغزاها . ولعل كايبور يفكر فى احتمال العودة الى انجلترا لغرض ما .

واقترحت مسز كايبور أن يعودا الى لوسرن ...

وبعد يومين من هذه النزهة أيقن اشندن أن فى الجو شيئا .. ففى غضون درس الصباح قالت له مسز كايبور :

ـ سافر زوجى الى جنيف اليوم لعمل يخصه .

ـ وهل سيمكث هناك طويلا !؟

ـ كلا . يومين لا اكثر .

وأحس احساسا غامضا أنها تكذب . وخطر له ان كايبور استدعى الى برن لمقابلة رئيس المخابرات الالمانية هناك . ولذلك انتهز اشندن الفرصة وقال للخادمة اثناء الغداء :

ـ عندك اليوم عمل أقل يا آنسة . فقد سمعت أن الهر كايبور سافر الى برن .

ـ نعم ، ولكنه سيعود غدا .

ولم يكن هذا اثباتا كافيا لظنونه ، ولكنه علامة على ان رايه قد يكون صحيحا . وكان يعرف فى لوسرن سويسريا على استعداد فى أوقات الضرورة للقيام بما يكلفه به من مهام ، فطلب منه اشندن ان يحمل خطابا الى برن . وكان الخطاب يوصى بالبحث عن كايبور هناك وتعقب حركاته .

وفى اليوم التالى ظهر كايبور مع زوجته على مائدة العشاء . ولكنه اكتفى بأن هز راسه لاشندن . وبعد الطعام صعد الزوجان الى حجرتهما والاضطراب باد عليهما ، حتى أن كايبور كان يسير على غير عادته مقوس الكتفين لا ينظر يمنة ولا يسرة .

وفى اليوم التالى تلقى اشندن الرد على خطابه من برن مع الرسول الخاص بما يؤيد ظنونه . فقد كان كايبور هناك وقابل رئيس المخابرات الالمانية ، فأيقن اشندن ان المقابلة كانت صدمة لكايبور . وأن الالمان سئموا دفع مرتب كايبور وهو قابع فى لوسرن لا يؤدى اى عمل . وغالبا يكون قد استحثه على العودة الى انجلترا لخدمة الالمان هناك .

هذا مجرد تخمين طبعا . ولكن صناعة الجاسوسية تعتمد على التخمين والفطنة الى حد كبير . وكان اشندن يعلم من جوستاف ان الالمان يريدون ارسال شخص ما الى انجلترا للاشراف على جواسيسهم هناك . فان صح ذلك التخمين فقد سنحت الفرصة لاعداد الكمين .

الفصل الخامس عشر

الفسخ

وفى اليوم التالى عندما حضرت مسز كايبور لتعطيه درسا كانت واجمة وغير مستقرة ويبدو عليها الاعياء . وأدرك اشندن ان آل كايبور قضيا معظم الليل يتكلمان . وتمنى لو عرف ما تبادلاه من حديث ، وهل استحثته على السفر أم حاولت ان تثنيه عنه .

وجعل أشندن يرقبهما أثناء الفداء ، فلاحظ انهما لم يتبادلا كلمة واحدة على خلاف العادة ، ثم غادرا المائدة مبكرين . ولكن عندما انصرف أشندن رأى كايبور جالسا فى البهو بمفرده فبادر أشندن قائلا :

ـ أهلا بك . كيف حالك ؟ لقد كنت فى جنيف .

ـ هكذا قيل لى .

ـ تعال تناول قهوتك معى فزوجتى المسكينة مصابة بالصداع . وقد قلت لها أن من الخير أن ترقد قليلا . والمسألة ان المسكينة منزعجة ، لانى افكر فى السفر الى انجلترا .

فضبط أشندن اعصابه ولم يظهر عليه اى رد فعل وقال :

ـ وهل ستطول غيبتك هناك ؟ سنفتقدك .

ـ الحقيقة انى سئمت هذا التعطل . ويبدو ان الحرب ستطول كثيرا ، وليس فى استطاعتى ان ابقى هنا الى الابد ، فضلا عن انى لا أملك الموارد الكافية للاقامة المستديمة هنا . فيجب أن أكسب قوتى . ومهما كانت زوجتى المانية ، فلابد أن اقوم بنصيبى من الواجب الوطنى . وزوجتى متمسكة بوجهة نظرها الالمانية ولا اكتمك انها مستاءة . وانت تعرف خصال النساء فى هذه الامور .

وكان واضحا فى نظرات كايبور انه خائف من السفر الى انجلترا

ويريد البقاء فى سويسرا . ولكن البقاء معناه ضياع المرتب الشهرى ، وهو بطبيعة الحال كان يريد من زوجته أن تحرضه على البقاء . ولكنه لم يجد لديها ما ينتظر . ولعله لم يستطع أن يظهر لها مايكنه من الفزع .

وساله اشندن :

ـ وهل ستأخذ زوجتك معك ؟

ـ كلا . انها ستبقى هنا .

ومعنى ذلك ان مسز كايبور ستتلقى خطاباته وتحولها الى رئيس المخابرات فى برن ليستخلص ما فيها من معلومات شفرية

واستطرد كايبور :

ـ لقد طال بعدى عن انجلترا ولست ادرى كيف أحصل على عمل يساعد فى المجهود الحربى الآن . فماذا كنت تصنع لو كنت فى مكانى ؟

ـ لا ادرى . ماهو نوع العمل الذى تفكر فيه ؟

ـ اظننى استطيع ان اقوم بمثل العمل الذى تمارسه ، فليتك تعطينى خطاب توصية الى أحد معارفك فى ادارة الرقابة .

ولا شك انه سيكون كسبا عظيما للالمان ان يكون لهم جاسوس فى ادارة الرقابة . وأدرك اشندن أن كايبور اخبر الرئيس فى برن أن موظفا فى الرقابة البريطانية يستجم فى لوسرن فرسم له تلك الخطة .

ـ ان رئيس الادارة يعزنى كثيرا واستطيع ان اعطيك جواب توصية ان شئت .

ـ اكون شاكرا .

ـ ولكنى بطبيعة الحال ساذكر له جميع الحقائق المتعلقة بك . وسأقول أيضا انى التقيت بك هنا ولم أعرفك الا منذ أسبوعين .

ـ طبعا طبعا . ولا ادرى حتى الآن هل أستطيع الحصول على تأشيرة بالدخول أم لا .

ـ لا اظنك ستجد أدنى صعوبة .

ووقف كايبور فجأة وقال :

ـ يجب ان أصعد لارى زوجتى واطمئن عليها . متى ستكتب لى الخطاب ؟

ـ فى أى وقت تشاء . هل ستسافر فورا ؟

ـ بأسرع ما يمكن .

وتركه كايبور . وبقى اشندن ربع ساعة ثم اسرع الى حجرته وحرر عدة خطابات منها تقرير الى الكولونيل ، وتعليمات الى السفارة فى برن كى تعطى كايبور تأشيرة الدخول الى انجلترا فور طلبها . وكتب ايضا خطاب التوصية الذى طلبه كايبور ...

وفى ساعة العشاء سلم اشندن الى كايبور خطاب التوصية .

وبعد يومين غادر كايبور لوسرن وبقى أشندن ، واستمر يتلقى دروسه اليومية على يد مسز كايبور ؛ وقد اصبح لسانه طلقا فى اللغة الالمانية وكثرت أحاديثهما عن جيته وعن الفن والحياة والرحلات . وكان فريتزى يقبع بجوار مقعدها فى هدوء . وتجذب اذنيه وتقول :

ـ ان المسكين يفتقد سيده . الحقيقة انه لا يحب غيره ، ويتقبلنى اكراما لخاطره فقط .

وبعد انتهاء الدرس فى كل صباح كان أشندن يذهب الى مكتب شركة كوك ليسأل عن خطابات له فقد جعل عنوانه هناك . وكانت التعليمات الصادرة اليه الا يغادر لوسرن الا بعد صدور اوامر جديدة . فلم يكن أمامه سوى الانتظار .

وبعد أيام قليلة تلقى خطابا من القنصلية فى جنيف يفيد ان كايبور طلب تأشيرة الدخول وحصل عليها ورحل عن طريق فرنسا . ولما قرأ اشندن هذه الانباء ذهب للنزهة على الاقدام على شاطىء البحيرة . وعند عودته رأى مسز كايبور خارجة من مكتب كوك . فأدرك انها جعلت عنوان مراسلاتها هناك ايضا .

وحياها قائلا :

ـ هل جاءتك انباء من هر كايبور ؟

ـ لم تصلنى خطابات منه بعد .

وسار بجانبها وكانت قلقة بعض الشىء . ولكن فى اليوم التالى لاحظ انها كانت غير مستقرة أثناء الدرس . وكان البريد يصل عند الظهر . فاستأذنت قبل انتهاء الدرس بخمس دقائق . وكان

اشندن يعلم انها لن تتلقى من كايبور اية خطابات .

وبعد قليل ذهب اشندن الى مكتب كوك فوجدها واقفة هناك ممتقعة الوجه . ولما راته صاحت :

ـ لقد وعد زوجى ان يرسل خطابا من باريس . ولذا انا واثقة ان هناك رسالة لى فى البريد . ولكن هؤلاء الاغبياء يقولون انه لايوجد شيء . يالهم من مهملين ! هذه فضيحة !

ولم يدر اشندن ماذا يقول وسال عن خطاباته . وسألت مسز كايبور الموظف عن موعد البريد فقيل لها انه الخامسة بعد الظهر .

وفى اليوم التالى جاءت تعتذر اليه عن عدم استطاعتها تلقينه الدرس . وكان واضحا ان جفونها لم تغمض طول الليل . وفى المساء وصلته مذكرة منها بأنها مضطرة لايقاف الدروس .

ولاحظ فى الوقت نفسه انها انقطعت عن تناول طعامها فى حجرة المائدة . وصارت تقضى اليوم كله فى حجرتها ، ولا تخرج الا للذهاب الى مكتب كوك . وشعر اشندن بالاسف الشديد لها وهى تقضى الساعات تلو الساعات فى قلق وفزع .

واخيرا اعطاه موظف كوك ذات صباح خطابا من الكولونيل على هيئة رسالة من الرسائل التجارية العادية :

« سيدى العزيز . ان البضاعة التى ارسلتموها من لوسرن وصلت فى موعدها المحدد . ونشكر لكم دقة تنفيذكم لتعليماتنا » .

وايقن اشندن ان كايبور لقى مصيره فسرت فى جسده رعدة وهو يشترى من مكتب كوك تذكرة سفر الى جنيف .

وفى هذه اللحظة دخلت مسز كايبور فهالته الحلقة السوداء حول عينيها وشحوب الموت الذى يعلو سحنتها . وترنحت فى مشيتها الى أن وقفت أمام الموظف وسألته عن بريدها . فهز الموظف راسه سلبا . فتوسلت اليه أن يعيد الفحص فامتثل اشفاقا عليها .

وعندئذ حصل شيء رهيب : فقد القى فريتزى راسه الى الوراء ثم عوى عواء حادا متصلا يمزق الاعصاب . فنظرت اليه مسز كايبور فى فزع وقد برزت عيناها من محجريهما . واصبح ما كانت تخشاه يقينا مقطوعا به لا سبيل الى المماراة فيه ..

« انتهت »

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية : ٨٤/١٦٧٤
الترقيم الـــدولى : ٠ ـ ٧٧٠ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

اشترك فى روايات الهلال

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة :
السيد / هاشم على نحاس
جدة ـ ص . ب رقم ٤٩٣
المملكة العربية السعودية

البرازيل :
M. Miguel Maccul Curry
B. 25 de Maroc, 990
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL

الكويت :
السيد / عبدالعال بسيونى
زغلول الكويت ـ الصفاه ـ
ص . ب رقم ٢١٨٣٣
تليفون ٧٤١١٦٤

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

المؤلف

* وليم سومرست موم من أشهر كتاب الرواية فى هذا العصر

* تنال رواياته ذيوعا كبيرا ، وقد اقتبس بعضها واخرج فى أفلام ناجحة

* سبب نجاح هذا الروائى أنه بنى رواياته على مشاهداته الشخصية

* ويمتاز سومرست موم بابراز شخصيات رواياته أبرازا قويا ، وبحبكته القصصية ، ومزجه الخيال بالحقيقة

* على الرغم من دراسته القانون والطب فقد جنح الى الادب ونبغ فيه نبوغا عظيما ، جعله اهلا لهذه المكانة

هذه الرواية

لم تكن حوادث هذه الرواية من نسج الخيال ، فبطلها المسمى فى الرواية مستر شندن لم يكن شخصية وهمية بل كان هو نفسى مؤلف الرواية وكاتبها سومرست موم ، فقد اشتغل سومرست موم فى خدمة المخابرات الانجليزية فى غضون الحرب العالمية الاولى ، ثم راى ان يسجل فى هذه الرواية التى اسميناها «كنت جاسوسا» واسمها بالانجليزية : «Ashenden : «The British Agent» الاسرار الغريبة المثيرة التى مرت به فى خلال قيامه بالجاسوسية ، وصور فى ابداع الكاتب الاديب ملاحظاته الدقيقة على النفوس البشرية فى تلك الظروف الدامية

وتبدو أمانة الرجل الاديب الفنان واضحة جلية فى اللوحات الصادقة التى سجل فيها موم على نفسه مواقف كان هو فيها مثال القسوة البالغة . كذلك سجل فيها على بلاده وعلى مخابراتها عدم التورع عن اية وسيلة فى سبيل القضاء على محاولات الاحرار من رجال مستعمراتها ، اولئك الذين وقفوا فى وجه الامبراطورية العتيقة الواهنة ، وانتهزوا فرصة الحرب للقضاء على سلطانها الغاشم فى بلادهم ، والظفر باستقلال تلك البلاد التى ظلت ترزح تحت نير الاستعمار

وقد استطاع سومرست موم ببراعته الروائية ان يسجل تلك الاحداث فى اسلوب قصصى ممتع شائق ياخذ بمجامع القلوب ، ويثير الرغبة الجامحة لمتابعة المطالعة حتى النهاية

انها تحفة جديدة لروائى عالمى

كنت جاسوسا